الفصل العاشر

إحن ومحن

في هذا الجزء من السيرة وما يليه سنستعرض ما جرى خلال بقية القرن، الذي استعاد فيه الإمام تركي حكم أسلافه في وسط جزيرة العرب، حيث اتسمت تلك الحقبة بالشدائد والقلاقل في نجد، وعمت في بعض سنواتها البلايا والرزايا على البلاد والعباد، وانتشرت الضغائن والتحاسد والتنازع بين الناس، وفي بعض الأحيان عمت البغضاء والفتن وضعف الأمن. وليت الأمر اقتصر على بعض العامة أو البسطاء أو بلدات محدودة، بل حدثت فتن وسفك دماء حتى بين علية القوم الذين يرجى أن يكونوا قادة الصلاح. منذ بدء إمارة محمد بن سعود لم يكن هناك اقتتال مكشوف بين آل مقرن بن مرخان، وما قام به بعض آل وطبان من إثم في القرن السابق، دفعوا ثمنه بالنفي من الديار النجدية نحو الشمال، إلا أنه في فترتنا هذه أطلت الفتن وخيمت الشياطين على العقول، فقتل البعض عمه أو خاله وتقاتل الإخوة والقرابة، وجرت أعمال دنيئة وخسيسة يترفع عنها حتى عتاة المجرمين، وقيض الله حوادث يختبر بها كل ذي لب وضمير. وسيلاحظ الأحبة إننا قد أعرضنا عن بعض تلك الحوادث، رغم ما فيها من عظات وعبر مفيدة، حيث يتسم بعضها بالحساسية وأخرى عدم لياقة ذكر تفاصيلها. كما أنوه إلى أن أجزاء من تلك المرحلة وقعت بعد وفاة الجد الأكبر علي بن حمد رحمه الله، وهو الكاتب الجيد والمدون النبيه للوقائع، على خلاف حال ولده عبدالله (جد أبي) الذي تعلم القراءة، لكنه لا يحسن الكتابة ولم يكن مولعاً بمتابعة محيطه، بل يمضي جل وقته في أعماله الخاصة والاهتمام بشئون أسرته وجيرانه. ويجدر بي ذكر أن أجزاء عديدة من سرد سيرة هذه المرحلة، تستند إلى ما رواه لأبي عمه زيد بن عبدالله بن علي، الذي كان يلقب "الكبير" لما كانت له من مساهمات في تحسين أحوال أسرته وجيرانه، وما تميز به من معارف وسعة ادراك وحكمة، رغم ما حرمه الله عليه من عدم الذرية رغم عدة زيجات، وقد مد الله في عمره من قبيل منتصف ذلك القرن، وحتى الربع الثاني من القرن التالي.

في حين وصول الجد علي للحريق باشر العمل على تحسين أحوال أهله وأملاكه، حيث اهتزت بعض الأمور لطول فترة انشغاله خارجها، وكان أكبر أثر قد حل بعمله التجاري لذا قرر سرعة المبادرة بجلب مزيد من البضائع الجيدة أو تلك المجزأة، التي تسد احتياجات سكان بلدته لرخص سعرها أو يتم بعثها نحو الشمال والغرب، حيث تباع بربح جيد في كثير من الحالات وتغطي مصاريفها بالكاد في حالات أخرى. في الشهر التالي قرر شد الرحال صوب البحر الشرقي، حيث تتواجد سلع منوعة من الصين والهند وفارس، وكذلك من اوروبا وأمريكه والحبشة، تتنوع بين الطعام والثياب

والأواني والعطور، إضافة إلى أدوات صناعية او مستلزمات البناء وكذلك الأسلحة والذخائر. بداء بالتوجه نحو بحر القطيف ونزل قرب حصن "رحمة" العتيد في الدمام، فساءه ما رأى من تدهور الحال هناك، حيث قلت البضائع المتوفرة في الأسواق، واضطرب الأمن وخاف التجار على مخازنهم من السطو، وسمع أقاويل عن تربص آل خليفة بتاروت وأهلها، مع حدوث خلافات جمة بين رحمة والخوالد، كما ساءت علاقته مع العذبية في جنوب البصرة. والأدهى من ذلك أن بحارنة القطيف الذين يشكلون جمهرة اليد العاملة، أمسوا على نقيض ما كانوا عليه في السابق، فتناقصت علاقة التعاون مع رحمة، الذي كان يتساهل مع ممارساتهم المستهجنة. واضافة لذلك حشد الرجل عدد كبير من سفنه المدرعة في مكان منزوي، لكنه مكشوف في ساحل قرب رأس تنورة. ولما زار ديوان رحمة صدم الجد برؤية ذلك المحارب الهصور في وضع متردي، فقد ساءت حالته الصحية وفقد معظم نور عينيه وتلعثم لسانه، وزادت تشنجات ذراعه المعطوبة ويُفرِط في استنشاق الأدخنة. رغم ما حل به فقد بقيت حدة ذكائه ومظاهر السخاء والحفاوة لديه، فقد رحب بالحاضرين في مجلسه جميعاً، وخص الجد يالسؤال عن تجارته ورواجها، في زمن "الدبور" كما سماه. ثم تطرق حديثه لأحوال نجد "الحبيبة" على حد قوله، وبعدها قال إن تركي بن عبدالله قد أحسن تدبير أموره مع العثمانية، فسمحوا له بتولي رئاسة العارض، فرد عليه الجد بلطف أنه قد شارك في القتال ضدهم، وأخرِجوا بقوة السلاح مكرهين. لكن رحمة رد بأن الخبر اليقين لديه، وأكد كلامه بأنهم رفضوا طلبه الإفراج عن ولده فيصل، لكنهم وافقوا على عودة ابن أخته وأحد "المشايخ الوهيبية" ليعاونوه، كما سيطلقون سراح عدد آخر من حاشيته ومساعديه. ولقاء ذلك التزم بحفظ الأمن والقضاء على قطاع الطرق، ودفع جزء من العوائد المالية سنويا لوكيلهم في الحجاز. آثر الجد ألا يحاوره في قضايا الحكم، أو مسائل الصراع على النفوذ، وركن للحديث في أحوال عارض اليمامة قديما، وما ورد فيها من أشعار وطرائف وأحداث سالفة، حيث مازال رحمة محباً لتلك الروايات ويطرب لسماعها، وبقي في ذاكرته المهتزة شيء غير كثير منها.

غادر الجد المكان وقد عقد العزم على التوجه نحو الهفوف، حيث أن أحوال القطيف لم تعد طيبة، لكن الرفاق هناك لم ينصحوه بالشراء منها، فقد فرض "العريعر" مكوس وباجه على حركة السلع الداخلة والخارجة من الأحساء، وعلى السفن التي ترسو في العقير، فغدا من الصعب تحقيق عائد مجزي من الاتجار بمنتجاتهم. اوصاه بعض من جماعته أن يتوجه نحو الزبارة، حيث استدعى رحمة في زمنه الغابر بعض من أهل الفرع وبرك والدلم والوشم وسدير، واستقروا هناك وشيدوا مساكن لهم، وأقيمت لهم فرضة تؤوي الزوارق والسفن الصغيرة، ويقوم البعض بجلب بضائع من فارس وعُمان والهند. لذا قرر شد الرحال إلى هناك حيث التقى في الزبارة مع رهط من أهل اليمامة، ومعهم جماعات من قحطان الواسعة، من الدواسر والعجمان والهواجر والمرية، وكذلك نفر من غير العرب مثل البلوش والأحباش. وجد هناك بلدة غير كبيرة لكنها

ساكنة، وبها تجارة واعمال متنوعة، فصيد السمك له جزء من المكان، كما يغوص البعض للبحث عن أصداف اللؤلؤ القليلة مقارنة مع ما هو في الشمال، ويجلب آخرون سلع متنوعة في قوارب "الدو" من هرمز، وأخرى من اليمن ومسكة ورأس الخيمة، أكثرها لسد حاجات الأعراب في شرق البلاد، لكن كمياتها قليلة تصلح لصغار التجار الذين يبيعونها مجزأة في حوانيتهم. المعضلة الكبرى هي شح المياه وملوحتها، ولاحظ الجد أن الينابيع الفوارة في الأحساء وأوال والقطيف، لا يوجد لها شبيه في الزبارة لكن مياهها أكثر مما لو اتجهت جنوب شرق نحو دوحة سلوى. وهو يعلم أن ينابيع المياه الغزيرة سواء على سطح الأرض أو في قاع البحر الضحل، هي التي تجلب الأصداف لتتوالد في كلا المكانين وتتحقق منها ثروة جيدة. الحالة الأمنية مستقرة رغم بعض الشجار بين أتباع "رحمة" والخوالد وآل خليفة، وفي البلدة رجل يسكن منزل كبير ومن أعيان التجار، يقال له ابن مسلم لديه حرس مسلحين يفرضون الحد من ذلك، وهو على ما بدا يتبع بني خالد إلا أنه يجامل آل خليفة، أما رحمة فقد انحسر نفوذه في البلدة بعد تهاوي قوته الحربية، وانكفائه في حصن القطيف (الدمام) ومعاداته لبني عشيرته العتوب. دعاه أحد التجار لزيارة "المسلم" الذي لديه مجلس يومي لوجهاء الزوار، ورأى من غير اللائق أن لا يقدم التحية لشيخ البلدة في أول زيارة له للمكان، وهناك شاهد فخامة غير معهودة في المدينة، وقد استقبله الرجل مع بقية الحاضرين بحفاوة، وأجزل كرمه وطيب حديثه معهم، وتناول مع الجميع طعام حسن، غادر بعده نصف الناس فالتفت الرجل نحو الجد علي مكرراً الترحيب، واستفسر منه عن بلدته وعن بقية أرجاء اليمامة، ولما علم أنه من سلالة عامر بن صعصعة، توجه الحديث نحو حكم العصفوريين لشرق جزيرة العرب في الماضي، وشعر الجد أن الرجل يختبر معارفه لما سأله عن تلك البلاد، وما اذا كان يعلم أنها شبه جزيرة قطر؟ وما سبب تسميتها بذلك وكيف ينطق الاسم؟ أجابه الجد أنه راغب الاستفادة مما يعلمه الرجل، لكي يتفادى الدخول معه في حوار اختباري، لكنه أصر على أن يسمع جواب أسئلته، فذكر له الجد أن قطر معروفة منذ قرون، وقد ورد نزر يسير عنها في كتابات الرحالة العرب والعجم. وفي القرن الأول كان أحد زعماء خوارج الأزارقة، يسمي نفسه "قطري بن الفجاءة" قاد عصابة من عتاة اللصوص نشروا الفساد في العراق، حتى خلص الله العباد من شروره وقتل زمن ولاية ابن الزبير، فقاطعه ابن مسلم ليؤكد ما إذا كان الخارجي ينطق اسمه بفتح القاف أو كسرها أو ضمها، ولم يخجل الجد أمام ذلك الإلحاح أن يقر على نفسه أنه قد نطقها بالسكون، حيث العرب تقول "سكِن تسلم" وحيث الاحتمالات واردة على كل نحو، وهو غريب عن الأرض ويجهل بعض خصوصيات أهلها. فتطوع الرجل بالقول إن سبب التسمية منذ القدم، ترجع لوجود كميات من "القطران" تسيح في المنخفضات، فزاده الجد قولاً أنه شاهد لديهم معدن (منجم) للنحاس قد يكون سبب التسمية، كما ورد اسمها لدى بعض الحجاج أنها القطر أو قطارة! ثم استمر المسلم في حديث على نحو آخر، فتباهى أن لديه مرابط خيل أصيلة، وقطعان إبل نجيبة من وسط نجد وعُمان، وعدد كثير من أملاكه وموجوداته من المال والمباني، والخدم والركائب

مما لا يستساغ الحديث عنه في أول لقاء. ولم يكتف بذلك بل تطرف نحو انتقاد تصرفات النجديين، واتهم بعضهم بإحداث تأويلات منكرة في الدين، وضرب مثل على ذلك أن بعض التجار من أشيقر لهم "طقوس" في يوم الجمعة، منها ترك البيع قبل الصلاة حسب النص، لكنهم انفردوا بتأويل آية "وابتغوا من فضل الله" بعد انقضاء الصلاة، فتراهم يتسابقون بعدها للجلوس جوار الجامع، يفترشون رمال الأرض ولا يقيهم حر الشمس وقر المطر سوى ظل خرقة بالية من شعر الماعز، يعرضون بضائع هزيلة لا يقبل عليها أحد، والسوق قليلة الرواد حيث ينشغل الناس مع شئونهم الخاصة بعد ظهر الجمعة، ورغم افهامهم بعدم جدوى ممارسة البيع في تلك الحزة، إلا انهم يكابرون ويعاندون مصرين على البركة في ذلك الوقت التي لا دليل شرعي عليها. ثم زاد على ذلك بقول أن "النجادى" لديهم شعائر "درعاوية" لم ترد في الكتاب والسنة أو عمل الصحابة، فيدعون أن حضور الجماعة شرط لصحة كل الصلوات وليس العيدين والجمعة فقط، ومن لا يحضر أحد الفروض اليومية في المسجد منافق، يسبونه ويضربونه ويأخذون أمتعته، كما أن بعضهم يجيز لنفسه الغش لأن المتعاملين معه من المسلمين "كفار" والغش محرم بين المسلمين فقط وجائز مع غيرهم، رد الجد أن هذا عمل اليهود الذين قالوا "ليس علينا في الأميين سبيل" وبعدها استفز الرجل مجالسيه من أهل اليمامة، بأقاويل تتضمن تهكم واستهزاء غير مباشر "بجماعتهم" وهي كلمة رددها كثيراً، مما جعل الجد غير مرتاح للمزيد من ذلك. فاستأذن هو ورفاقه للمغادرة نحو دوحة سلوى في الصباح الباكر، لكن مضيفهم حرص على صرف عزمهم الذهاب هناك، مما يناقض كلامه السابق ويوحي بضعف سلطانه في البلدة ومحيطها.

شاهد الجد آثار خراب في بعض البنايات الواقعة على "سيف" البحر، وفهم أن الانجليز بعد سقوط الدرعية تجرأوا على التوغل شمالا نحو بحر القطيف، بعد أن كانت سفنهم تكتفي بالتجول في بحر عُمان، إلا انهم في السنوات التالية تذرعوا بفرية "القراصنة" العرب، الذين يخرجون لمهاجمة سفن شركة الهند التجارية، فدكت مدافع سفنهم بعض الموانئ التي يدعون وجود قراصنة فيها، وقد جاءوا قبل خمس سنوات ودمروا بعض محلات الزبارة، متوعدين بالمزيد من ذلك لكل من يخرج جنوب هرمز نحو بحر الهند العالي، لذا اكتفى الكثير من العرب بالسنابك الصغيرة، خاصة بعد انحسار نفوذ سفن رحمة في المنطقة. لم يمضي الجد مدة طويلة في الزبارة إلا وقد أدرك عدم جدوى الشراء منها، لذا أخذ بوصية بعض الصحب المتجهين نحو رأس الخيمة، وعند مغادرة البلدة قال لهم أحد الرفاق إنها كانت عامرة قبل سنوات حينما كان آل خليفة يديرونها بعناية، ثم لما جرى النزاع بين سكانها تدهورت. وضرها الخلاف مع رحمة ثم قصفها من سفن النصارى، بعد زوال حكم الدرعية قبل ثماني سنوات، فها هي الآن بعد أن أخذت{ زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً} كما قال سبحانه.

واصلوا سيرهم ثم انحدروا جنوبا صوب البقعة التي تصل شبه الجزيرة ببلاد العرب، ثم انعطفوا يسارا يمشون على مبعدة من الساحل، لأن الأرض غدت سبخة مالحة، لا تنبت ما تتغذى عليه الركائب وتغيص فيها الحوافر والأقدام، ومائها غماج يتجرعه المرء ولا يكاد يسيغه. بعد مسيرة يومين شاهد على يمينهم زراعات ومنازل، وأنعام ترعى جهة الغرب حيث نزر يسير من الكلاء، فقالوا له أن تلك بلدة "ليوه" وهي على الحافة الشرقية للرمال العالية، وفيها ماء غير مالح ونخيل متوسطة النوعية. وقالوا ان بعض الرفاق ضمن الركاب يريدون النزول فيها، لكن الجد وقرابته أبوا حيث يزمعون التوجه مباشرة لرأس الخيمة، وليس لهم حاجة في هذه البلدة. ألح عليهم قائد القافلة أن لا ينفردوا بالمسير حرصاً على سلامتهم، ووعد بأن يكتفوا بإقامة قصيرة ريثما تستريح الركائب، وينتعش الحال في أيام قليلة ثم يتوجه الجميع سوية لمقصدهم. لما دخلوها اطمأنت أنفسهم ووجدوا سبل الراحة والرفاه، وعلم الجد أنها بلدة "بني ياس" وهم قوم كرام تعرف عليهم أجداده قبل ثلاثة قرون، حينما كانوا يدافعون بضراوة عن ديار الإسلام، ضد هجمة الطاغية اللعين "البكيرك" قائد غزوة نصارى البرتقال، الذي أهلك العباد ودمر البلاد بالمدافع التي لم يرى أحد من العرب مثلها قبل ذلك. كان "بنو ياس" يسكنون تلك المنطقة القاحلة منذ زمن بعيد، يعيشون على الرعي والصيد، أما التجارة فقد كانت تقتصر على جلب لوازم السكان، فيسافرون جنوباً نحو الرستق لبيع بعض دوابهم، وشراء ما يحتاجه أهل بلدتهم التي تصغر عن بلدة الحريق، لكنها قريبة من طرق السابلة وتتوفر فيها مياه شبه عذبة شحيحة. أثناء إقامتهم هناك علم أن "طحنون" قرر نقل مقر إمارته إلى جزيرة غير بعيدة عن السبخات الملحية، توجد فيها وعول ظباء ومها يقال لها أبو ظبي، ويعمل أهلها في الصيد والرعي، أما الغوص لجمع محار اللؤلؤ فهو قليل، لندرة المياه العذبة النابعة من قاع البحر المالح الضحل. رفض الجد اقتراح بعض الرفاق للذهاب هناك، رغم ما سمعه عن سجايا حميدة لحكام أبو ظبي من "آل نهيان" وأصر على سرعة التوجه لمقصده في رأس الخيمة، التي وصولوها بعد أيام من معاناة عاصفة رملية شديدة هبت عليهم، وأدركوا حينها معنى وعثاء السفر في الأرض الملحية القاحلة.

وجدوا في رأس الخيمة طراوة وحلاوة الحواضر العامرة الآمنة، وردد أحد الرفاق مقولة "حسن الحضارة مجلوب بتطرية" رغم أن ذاك قيل في النساء وليس في المدن، إلا أنه أدخلهم في حوار يحوم حول القصد. البلدة ذات طابع فريد حيث تحدها من جهة الشمال الشرقي جبال سوداء، لا تشبه جبال طويق المنخفضة ذات الصفرة الرملية، ومن الجنوب الغربي البحر ذو الزرقة السماوية، لذا ترتفع فيها الرطوبة مع نسائم مسائية عليلة. سكانها خليط منوع من العجم والهنود، وعرب عُمان ومن قحطان الواسعة، أما حكامها فهم "قواسم" يقال انهم من ذرية "النفس الزكية" أحد حفدة الحسين بن علي رضي الله عنهما، وذلك خلاف أهل أبوظبي الذين ينحدرون من سلالة رفيدة قحطان، وبعض من جماعتهم في الشارقة (جنوباً عنهم) لا يشبهونهم في طريقة

المعيشة، حيث هنا ثراء ورفاه ومتاع الدنيا. لكن ما يبدو واضحاً هو الحضور "الدرعاوي" الكثيف، حيث التجاء إلى هذه البلدة جموع من الفارين من بطش الباشا، الذي بعد أن دمر الدرعية وأرسل إمامها للمشنقة، ونفى الكثير من أعيانها لمصر، فقد التفت نحو الفارين من ذرية ابن سعود وابن عبدالوهاب وأعوانهم، وطاردهم في الفيافي حتى يوقع بهم عقوباته من سجن ونفي وقتل، لذا اضطر البعض من أهل الدرعية للفرار شرقاً للنجاة من بطشه، ثم اتجه بعضهم جنوباً حتى وصلوا رأس الخيمة ثم مسقط، البعيدة عن متناول يده الكريهة فارين بأرواحهم. وقد قال له أحدهم أن بعض النسوة من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، يتواجدن في تلك المدينة ولديهن مجالس لتعليم الفقه والشريعة، كما أن عدد من حفدة الشيخ محمد موجودين في رأس الخيمة متخفين، حتى لا تطالهم أعين رجال الدولة العثمانية الخونة. واضافة لهذا يتجول في أرجاء تلك البلدة، جمع ليس قليل من أهل نجد بلباسهم المميز، وهم أما جاءوا للتجارة أو هرباً من أعوان إسطنبول.

أعجب الجد بازدهار السوق هناك بالسلع الواردة من جزيرة "قشم" الواقعة على الشاطئ المقابل لهم، والتي تخرج منها كثير من سلع بلاد العجم، وبخاصة الزعفران والزرابي (سجاد) والجلود، إضافة لأنواع كثيرة من بضائع الهند والملايو وجاوة، كما تفد للسوق أصناف من منتوجات اليمن والحبشة، عن طريق صور ومطرح وصحار في الجهة الجنوبية، سواء عبر الجبل أو بالبحر. كانت أسواق البلدة عامرة ومزدهرة والأسعار متهاوودة، والعلة الكبيرة فيها هي البعد عن "خرج اليمامة" وهي طريقه نحو الحريق، لكن يخفف من أثر ذلك الأمن الوارف داخل البلدة أو في السبل المؤدية نحو الأحساء، ثم بعد ذلك يغدو الطريق معروفاً عنده منذ أمد بعيد، ويتقبل ما فيه من مكوس أو صغار "الحنشل" وقلة المياه العذبة. قال له البعض أن محاولات جرت لعبور الصحراء، بالتوجه من بلاد بني ياس نحو أفلاج ليلى، لكنها باءت بالفشل حيث نطحتهم كثبان عالية من الرمال المتحركة، ومعظمها شديدة النعومة فتغيص فيها أقدام الرجال والركائب، كما تكاد تنعدم المياه أو أي نباتات تتعلف عليها الدواب، وقد واجهوا مخاطر جمة في تلك الفيافي القاحلة مما يدفع العقلاء لتجنبها، فيسلكون درب الساحل المتعرج والطويل، حتى يصلوا سلوى على مقربة من الهفوف.

في تلك الحقبة كانت رأس الخيمة متنوعة المشارب، ففيها أهل التوحيد يعلمون الطلبة أصول دينهم، وروافض الفرس يمارسون طقوس منكرة يدعون أنها شعائر أهل البيت، أما أباضية عُمان فهم أقل تطرفاً من خوارج العراق ونجد، والنصارى يتجولون ويعملون بدون أن يؤذيهم أحد. وقد علم أن مسيحيو البرتغال (الأرثوذكس) قد استقروا فيها وحكموها حتى بعد ذهاب قائد عساكرهم (البكيرك) في القرن السادس عشر، وفي القرن التالي جاء للمدينة الهولنديون (برتستانت) وسيطروا على البلدة بالتعاون مع أهل "نزوى" وحكموا بأسلوب جاف، يشبه ممارستهم في بلاد جاوة التي استعمروا جزرها الإسلامية، وشجعوا أناس من الوثنيين (ومسلمين) للتدين بالمسيحية. أما في القرن

الثامن عشر لما توسع نطاق إمارة الدرعية، فقد اضمحل نفوذ النصارى بخاصة في زمن الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وزاد ذلك عندما بسط ولده الإمام سعود (أبو الشوارب) حكمه من جنوب العراق حتى شمال مسقط، لكنه في نفس الوقت منع العرب عن التحرش بسفن تجار النصارى، المليئة بنفائس البضائع الفارسية والهندية. فلما دمر الباشا الألباني الخبيث الدرعية، جاءت عساكر غفيرة تابعة لشركة الهند الإنجليزية، وادعوا زوراً أن راس الخيمة وكر للقراصنة، لذا دمروا حصنها ودكت مدافعهم الضخمة بيوت ومتاجر الأهالي، وفرضوا أمرهم ونهيهم على الجميع، فعليهم من الله ما يستحقون من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. لهذا بدت للجد مظاهر نشاز في رأس الخيمة، حيث أدى تساهل رؤسائها من القواسم إلى انتشار كافة طرق المعاملة، سواء المندوبة منها أو تلك المكروهة، حيث تعمر المساجد والمدارس بالمصلين وطلبة العلم الشرعي، وفي نفس الوقت توجد في الخفاء السيئات والفواحش. ومما جلب النظر أيضا وجود صناعات متقنة، تتجاوز ما شوهد في أرجاء جزيرة العرب، بما في ذلك مكة المشرفة، حيث معاملها تصهر المعادن الثقيلة، وتصنع منها سلع كانت لا تتوفر إلا في البلاد الأخرى، كما توجد فرضة يتم فيها تصنيع السفن متعددة الأشرعة وتجهيز مدافع على جوانبها، مع صفائح معدنية تحمي أطرافها من القذائف الملتهبة. أما الحُلي من الفضة والذهب فلها سوق خاص، تصنع فيه (آنذاك) أشكال متنوعة من المصاغ، يعمل فيها حرفيون مهرة من العجم والهنود والبحارنة. جاء بعض أهل العارض للبلدة ومعهم أنباء كثيرة، اهتم الجد بأحدها وهو وصول مشاري ابن أخت الإمام تركي للرياض، قال البعض أنه فر من المحبس، وادعى آخرون أن الباشا أطلقه بناء على ترتيب مسبق، ثم جاء حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب (عبدالرحمن بن حسن) مما أكد للبعض وجود علاقة وثيقة بين الرياض ومصر. جهز الجد عدد من الركائب المحملة بألوان من البضائع والأطعمة والثياب والسلاح، وتوجه مع عماله ورفاقه على مطاياهم، في صحبة قافلة كبيرة (قاطرة) متجهين صوب اليمامة.

تمكن الجد من تصريف بضاعته في الحريق، وبعضها أخرجها نحو الوشم والقصيم، وبقي جزء منها بسبب قلة النقد في أيدي الناس، وتوجسهم الخيفة من قادم الأمور، مما دفع الكثير لتأجيل شراء المستلزمات غير الضرورية. بعد فترة من الوقت وبينما هو منشغل في رعاية أهله وجيرانه وأنعامه وزرعه، جاءه نباء حزين عن مصرع رحمة الجلهمي في رأس تنورة، أثناء هجوم شنه عليه آل خليفة، بدعم من آل صباح وبني خالد، بعد أن استشعر الجميع شدة الوهن في قواته، كما تضجروا من تصرفاته وأعماله التي تتقلب عند سوء مزاجه، وكثرة تبدل تحالفاته وخططه. أسف الجد لفقد ذلك الرجل الصمصام، الذي كان له دور كبير في أحداث شرق (ووسط) جزيرة العرب، فقد كان يرى فيه مثال الشجاعة والوفاء، مع علات متفرقة يغطي أكثرها دراية بالفقه الشرعي، وعطف ومودة على مستضعفي أهل القبلة. أثناء مقعد سمر في الحريق تحدث البعض عن ذلك الشخص الغامض، بأمور متناقضة فمنهم من يمجده فوق ما يستحق، وآخرون

ينتقصون منه ولا يسردون إلا مساوئ قد لا تكون كلها فيه. وقد روى الجد علي بن حمد لولده عبدالله ثم لحفيده زيد بن عبدالله، شيء مما عرفه عنه أثناء زياراته للساحل الشرقي، وفي خمسينات وستينات القرن العشرين سمعت والدي (رحمه الله) يذكر في مجلسه بمكة ومصر نبذة عن ذلك الرجل. كان مما قاله إن رحمة ينحدر من قوم يقال لهم "الجمايل" وهم عتوب من جلاهمة عنزة الرُحل، وقاطعه أحدهم بأنهم من تغلب لكن أبي لم يكترث له، واستمر بالقول أن أولئك القوم سكنوا بعض الوقت في الأفلاج ثم جرى خلاف مع قوم من دواسر اللدام، لذا ارتحلوا غرباً نحو شمال المدينة المنورة. ثم بعدها زحفوا في تلك الأزمنة البعيدة شمالا نحو أنبار العراق، وتلى ذلك انحدارهم جنوبا نحو "كوت البصرة" حيث تعرفوا على أناس من بني خالد حكام الأحساء، فعملوا معهم على طول الساحل حتى رأس مسندم (عُمان حالياً) في الغوص والتجارة، كما جاهدوا ضد سفن النصارى البغاة على ديار (أوطان) المسلمين "من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه" حيث عاونهم يعاربة مسقط. وقبل توسع إمارة الدرعية زمن محمد بن سعود بعشرات السنين، انقسم الجلاهمة فسكن بعضهم (العذبية) جنوب الكوت، أما العتوب فقد استقروا في "اوال دلمون" منامة البحرين حاليا، وكان معهم جد رحمة الذي ساعدهم في توسيع نفوذهم، حتى شمل الزبارة والشارقة والقطيف، ومنهم الآن آل خليفة ملوك البحرين، حيث كانت لهم صولات ضد الفرس والنصارى، ولديهم سفن ضخمة تبحر في المحيط. لأمر ما اختلف آل خليفة مع والد رحمة (جابر الجلهمي) فقتلوه مما جعله وقومه يحقدون عليهم، لكن الرجل لم يبد لهم الضغينة بل أكنها في نفسه. ولما توفي الإمام محمد بن سعود تولى ولده الإمام عبدالعزيز قيادة إمارة الدرعية، التي شهدت في حقبته توسع هائل تزايد بجهود ولده الإمام سعود، الذي فرض بنفوذه وجبروته السيطرة على مساحات واسعة في وسط جزيرة العرب وشرقها ثم الحجاز، وامتد حكمه إلى أجزاء من اليمن والعراق والشام. وآنذاك ظهرت حنكة ودهاء رحمة، مما اضطر أعدائه للاستعانة به للخروج من التصادم مع الدرعية، فلما غضبت على آل خليفة وسجنت بعضهم، اضطروا للتوجه إليها لتقديم فروض الولاء لحاكمها الجبار (سعود أبو الشوارب) واصطحبوا معهم رحمة الذي تمكن بدهائه من كسب رضى قادة الدرعية، وسمحوا للخليفة بالاستمرار في حكم أجزاء من الساحل الشرقي. أما في مسقط فبعد أن تولى "ابن سعيد" أمر صحار، أوقع الهزائم على الفرس فزاد طموحه وأزاح اليعاربة عن الحكم مستعيناً بإمكانيات جد رحمة، الذي تضخمت قوته حتى بنى لنفسه حشد من عشرات السفن الحربية، على رأسها غطروشة التي أدخلت الرعب في قلوب بحارة المنطقة، واستغل تلك القوة لمضايقة من يعادي حلفائه، ولاكتساب المزيد من النفوذ. وفي الشمال كان رجل يقال له "صُباح" بن شملان العذبي من جلاهمة العتوب، قد بداء يؤسس له إمارة جنوب البصرة ليحكم بلدة فيها حصن صغير (كويت) ولم يجد بد من الاستعانة برحمة وجنوده، للقضاء على المناوئين سواء من القرابة أو الأباعد. واستغل رحمة رضى الدرعية عليه، للحصول على المزيد من المال والنفوذ، وأخذ يتدخل في شئون كافة أمراء وشيوخ الساحل الشرقي، لكنه بغضه

الخفي لآل خليفة (قتلة أبيه) مستعر في جوفه، ويتحين الفرص للإساءة لهم، فقد أخذ يستجلب نفر غفير من أهل نجد نحو بلدة الزبارة، ويحثهم على الاستيطان فيها واتباع أوامر كبارهم الذين يوالونه، كما تدخل مع بني خالد للإيقاع بينهم والخليفة، وزاد على ذلك بتحريض بني ياس "المكتوم والنهيان" لعدم الانصياع للخليفة، وأوغر صدور القواسم أيضا عليهم. أما هجماته على العجم وخزعل والانجليز، فقصده منها الغنائم واحراج آل خليفة مع القوى المجاورة، لكن أشد ما فعله ضدهم هو تعرفه على رجل من معاضيد تميم، جاء من أشيقر للعمل في الغوص، يقال له محمد بن ثامر "الثاني" ولما آنس منه فطنة ودهاء وحسن تدبير المال، دعمه ليزيد من تجارته في قرية شرق الزبارة مقر آل خليفة، ثم استقدم عائلات أخرى من الأفلاج والحوطة واليمامة، لتعمل معه وتقوى شوكته ضد المناوئين. أما قواسم الشارقة (وبعض رأس الخيمة) فقد كانوا معتدين بأنفسهم، ويقبلون بالكاد سلطة الدرعية وليس أتباعها غريبو الأطوار، ومع هذا فقد اضطروا في بعض الأحيان، لقبول تدخل رحمة في اشكالاتهم مع "البوسعيدية" حكام مسقط، ذوي النفوذ لعلاقتهم مع الانجليز ولمكانهم على البحر العالي. وبعد تدمير الدرعية على يد الترك وزوال السلطة السعودية عن الساحل الشرقي، بداء دور رحمة يضمحل ولم يستسغ الأهالي التصرفات الهوجاء لذلك النجدي، الذي مهما اختلف الناس حول تصرفاته، فلا يسعهم انكار دوره في التأثير على مجرى أحداث المنطقة خلال نصف قرن، كما يشيد الكثير بحسن معاملته وكرمه مع أعوانه، ودعمه لهم في السراء والضراء. لذا تكالب أعيان البلدات على رفض سلطته، وانفض من حوله كثير من الأنصار، كما تزايدت عليه أوجاع الشيخوخة وجروح المعارك، فتربص له أقوى أعدائه وقتلة أبيه آل خليفة، وحشدوا له جموع من الخوالد وآل صباح وهجموا عليه وقُتل في المعركة. سمعت أحد المقربين لأبي يقول مازحاً "إن أبو خالد وأجداده كانوا معجبين برحمة" رغم أنه ليس إلا قرصان البحر ولص البر، لكنه كريم العطاء ويحسن على الضعفاء، فهو كما يقال سارق شريف" ضحك أبي ورد عليه أن ليس هناك من يسرق بشرف، فمهما أحسن للفقراء فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، وأما المال الخبيث فلا تُقبل الصدقة منه ولا تزكيه لأن الله يجعله هباء منثورا. قال آخر إن "روبن هود" كان يطلق عليه اللص الشريف، فتسرعت وأنا في عمر صغير شغوف بالروايات الأسطورية فقلت إن "ارسين لوبين" كان ايضاً لص ظريف، فنهرني يرحمه الله في المجلس وأمرني بترك الترهات. ثم التفت إلى مجالسيه قائلا إن سيرة رحمة "أبو بشر" كانت مليئة بالعظات والعبر، ولابد أن نستفيد منها لتجنب الأفكار العشوائية، وتأثير المزاج المتقلب على قراراتنا، كي نسلم من الوقوع في مآسي على أنفسنا وأحبتنا. رفض أحد الصحب ترك الأمر معلقاً وساندني وأنا أصغرهم، فقل لوالدي إن وجود لصوص "شرفاء" أمر معروف منذ زمن الجاهلية، فقد كان قوم يسمونهم "الصعاليك" منهم عروة وتأبط شرا، ينضمون الشعر في الأثرياء ويصحبونهم في الحل والترحال، ثم يغدرون بهم ويسلبون مالهم بدعوى أنهم يعطون منها للضعفاء. وإذا لم يجدوا ذلك غدوا خوارج على العدالة، يستولون على أملاك الغير لأنفسهم وللمحتاجين، ويعدون

أنفسهم شرفاء يسعون للخير، فرد عليه أبي إنه يعرف جيداً الكثير من هؤلاء الصعاليك الذين يلقون الخزي في الدنيا وعذاب الآخرة أشد، فقال أحدهم إن الصعاليك لا يخافون الله ولا يستحون من خلقه، ولا يبالون بالعيش في خزي بل يفرحون ويفاخرون به!

أود أن أذكر للأحبة انه في مطلع ستينات القرن العشرين، كان في مجلس أبي الشاعر والأديب المرموق "احمد رامي" راعي مؤسسة تيمور باشا، والذي اشترى بعض الكبراء شيء من نظمه لأنفسهم، وقد ذكر أن مؤسسة السينما الحكومية، التي أسسها عبدالناصر على ما صادره من أملاك الأشوام واليونان والطليان، تزمع انتاج أفلام تروج للفكر الثوري. وقد أعجبهم فلم أمريكي يقال له "ثورة على السفينة بونتي" أي "ميوتني أون ذا باونتي" بطولة مارلون براندو، ويريدون عمل أفلام مشابهة تمجد "الثوريين العرب" الذين تصدوا لمكافحة الطغاة الأوروبيين، وقد قيل لهم عن القرصان "خير الدين الجزايري" الذي كانت سفنه تجوب غرب البحر المتوسط لتنتقم من سفن جنوب أسبانيا وفرنسا وايطاليا، بعد أن فتكوا بالعرب في الأندلس ونهبوا أملاكهم. إلا أنهم فيما بعد أجلوا ذلك لما عرفوا أنه أمازيغي، وقد انقلب على سلطان مصر آنذاك "قنصوة" ثم حرض عساكر السلطان سليم، في مطلع القرن السادس عشر ليتجهوا جنوبا نحو الشام ثم مصر والحجاز، وقام بوضع امكانياته البحرية في خدمة اسلامبول، حتى تتمكن من السيطرة على شرق المتوسط، وتترك له بحر الغرب من تونس إلى مراكش. وكان رامي يريد من والدي أن يكتب سرد حياة رحمة، الذي حارب المستعمرين في بلاد العرب، وقاوم محاولاتهم الإمبريالية في خليجهم العربي، حيث كانت الأغاني تصدح بالقول "من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر لبيك يا ناصر" لكن والدي تردد في ذلك، واعتذر بأن رحمة لم يكن سعودياً بل بحريني، والأولى أن يقوم بذلك أحد أبناء البحرين، التي كانت ما تزال تحت الاحتلال الإنجليزي، ولم تصبح دولة مستقلة إلا بعد ذلك بعشر سنين. وأود أن أنوه أنه في تلك الفترة أخبروا والدي أن أحد وجهاء البحرين قد قدم إلى مصر، وقد أشاروا عليه أن يسكن جوارنا، غرب الترسانة والزمالك (المهندسين حاليا) فأقام له والدي مأدبة فيها بعض وجهاء السعوديين والمصريين (المتزنين) منهم الأستاذ الفاضل "الشورى" الذي سنتحدث عنه باستفاضة في الفصول اللاحقة، ومنهم الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي مصر السابق، الذي كانت له علاقة وثيقة بوالدي، ولا أنسى زيارته الكريمة لي في مستشفى مورو (ميدان مساحة الدقي) وكذلك زوجته وبناته لوالدتي. وقد كان "الزياني" رحمه الله من المقربين للشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم جزيرة البحرين آنذاك، وتبين لي من أوراق مراسلاته أنه من كبار التجار هناك، وهو أيضا وكيل شركات سيارات فارهة ومتوسطة. وسمعته يسأل والدي عن شراء منزل في القاهرة، ليسكن هناك شهور طويلة بدلا من الزيارة الصيفية فقط، لكن والدي نصحه بخلاف ذلك، حيث الأمور هناك تتدهور كل سنة، نتيجة السياسة الخرقاء لضباط الجيش الذين استولوا على الحكم، بدون أي خبرة سوى في التدمير والتفجير. كما زاده بأن كبيرهم الطاغوت يبغض كل

من له لحية، أو يلبس الثوب والعقال والعباءة، بل ويتبجح بذلك في خطاباته التي يلقيها على الملاء، ويتهدد أولئك الرجعيين بنتف لحاهم وتمزيق ثيابهم (نعم هكذا بشهادة أذني!) لذا يلزم الحذر، وبين أنه لولا الدراسة والعلاج ما بقي هناك ساعة واحدة. وذات مرة في إحدى جلساتهم شبه اليومية، حيث كانت أباشر الضيافة لهم، واستمتع بسماع أحاديثهم الرزينة، والزياني يسره سماع معرفتي الجيدة عن السيارات وشغفي بها، وأخبار الكونتنتال التي قتل فيه كنيدي، أو الرولز رويس الصفراء، سمعت والدي يحادثه حول رحمة بن جابر، وما اذا كان أحد قد دون سيرته مفصلة، لأن هناك من يريد نشرها، لكن الرجل طلب منه صرف النظر عن الأمر نهائياً، حيث الشيوخ عندهم لا يستمزجون ذلك، وعسى أن تكون الحال قد تغيرت بعد أن مرت السنون الطويلة. وأختم هذا الاستطراد بالإشارة أن الزياني، قد استمر يزور مصر صيفا، ويلتقي عند والدي ببعض المصريين، وذات مرة دعا والدي والشيخ مخلوف لزيارة البحرين، فاعتذر أبي لكن المفتي (السابق) لبى الدعوة. وسمعتهم يتهامسون لاحقا أنه قد أخذه في زيارة للسلام على الأمير، فسأله عن المبلغ الملائم له هدية دخول القصر، فقال الزياني إن الرجل غني "مخباه مليان دراهم" فتبسم الشيخ عيسى وقال إذاً اشحن لمصر سيارة متوسطة له. وبعد شهور خابرني الشيخ مخلوف، وكان أبي في مكة وطلب حضوري مع سائقنا "رمضان الجرداوي" حيث شاهدنا سيارة دودج خضراء (م 65) أمام منزله، وقد انفرد مع السائق في حديث لم أعلمه، وتكرر طلبه للسائق وأمرتني والدتي بعدم الذهاب معه، وقد كان الرجل يتأفف من الذهاب، وسمعته يثرثر بأن السيارة بقيت في الميناء طويلا، حيث أراد الشيخ أن يتدبر سداد الجمارك العالية على السيارات الأمريكية، مما أثر على عمل بعض أجزائها. لقد كان ذلك السائق أمين ومخلص ومهذب (إلى حد ما) لكنه ذو ميول ناصرية يسارية، وكان خلقه كريه من الناحية المادية، فقد بقي عدة سنوات يسأل عن سبب عدم عودة الشيخ سليمان بالغنيم لمصر، ويعبر عن حبه الشديد له لأنه أقرب الناس لصفات والدي رحمهم الله، وبعد ذلك فهمت أن علة ذلك أنه نفحه خمسة جنيهات، حينما أوصله للفندق، وكان راتبه آنذاك ثمانية جنيهات غير العطايا.

ونعود الآن إلى سيرة الجد (الأعلى) علي بن حمد، ففي عام 1242هـ كان مستغرقاً في متابعة أعماله الخاصة، لكن حركته بدأت تتثاقل من آثار إصابته في الدرعية قبل سنوات. وأخذ يلازمه أقرب أحفاده إلى قلبه، فيصحبهم معه للتنزه في مراعي الدواب التي ازدهرت بالخضرة، بعد موسم ماطر جيد أعاد للمفالي بهاءها، وزادت المحاصيل بخاصة الحنطة والذرة والدخن والشعير، رغم تكاثر الجراد وبعض الآفات الزراعية. ولما انتشر الخاء والخصب استبشر الناس بذلك العهد، وأقاموا موائد عامرة يأكل منها الغني و"القانع والمعتر" احتفاء بزواج ذريتهم أو ختان بنيهم وحفدتهم. وزادت بهجة القوم لما وردت بعد شهور أنباء هزيمة إبراهيم باشا في اليونان، حيث اعترض بنو طائفتهم (الأرثوذكس) الروس، وكذلك الفرنسيون (كاثوليك) والانجليز (بروتستانت)

وارسلوا قواتهم للدفاع عن اليونانيين، الذين تعرضوا لطغيان الباشا الذي ظن أنه ما زال في الدرعية البائسة، فتلقى نكسة ماحقة جعلته وأبوه يطلبون السلامة، غير عابئين بأوامر السلطان محمود في إسطنبول. لكن الخلاف دب بين الطوائف الثلاث من النصارى، حول مصير الدولة العثمانية المريضة، وراجت أقاويل أنهم يودون أن تسقط تلك الدولة على يد المسلمين، وكانت مصر آنذاك في يد حاكم واعي (غير مستهتر) وبها خير جند الأرض. وبعد غزوة استمرت سنتين عاد الباشا عند أبيه في قلعة القاهرة، بثلاثة أرباع الهزيمة حيث قررت دول أوربا منحه بعض الجزر الصغيرة، مع تحريضه على عصيان خليفة المسلمين وسلطان الأناضول محمود خان، فازداد فرح أهل الحريق داعين الله أن يجعل "حيلهم بينهم" وآخرون يسألونه أن يهلك الظالمين بالظالمين. لقد كانت تلك الأنباء توحي أن الاستانة والقاهرة ستكونان مشغولتين بحالهما وتترك نجد لشأنها.

ذات يوم جاء للجد أحد الجماعة قائلا إن ربعنا في الحاير، يدعوننا للقاء يحضره لفيف من سبعان العارض، للتداول حول أمور تهم العشيرة، ويريدون من الجميع المشاركة في بحث الأمر، وتقرير ما يلزم عمله حياله. شد الجميع رحالهم متوجهين إلى هناك، وفي الطريق علم أن بني خالد حكام الأحساء منذ قرون، استعادوا نفوذهم هناك بعد سقوط الدرعية، ويريدون التوسع شمالا نحو البصرة، وامتدت طموحاتهم لمكان في الطريق عند آبار العتش. تلك منطقة في الصمان معظمها لقبيلة سبيع، وغربها مناطق لمطير وهناك نزاعات ومفاهمات بين الطرفين، لتقاسم الموارد والبعد عن العمل العدائي، لكن دخول الخوالد المنطقة يحدث ارتباك وتفاقم للنزاع. وتحدث أعيان سبيع هناك مع زعيم بني خالد (العريعر) واخوته، لكن القوم يريدون إقامة مقر مؤقت هناك، لتستريح وتشرب فيه قوافلهم ودوابهم في طريقها للبصرة، لكن معظم السبعان يرفضون ذلك، مع احترامهم لحق السابلة في المرور الآمن بدون انشاء مقر. وفي نفس الوقت جرت مسألة أخرى مربكة، جاءت من أهل مسقط الذين التجاء لديهم أحد أولاد رحمة الجلهمي، والذي فعل كما قام به أبوه سابقاً. فبعد وفاة أبيه الذي لم يعرف إذا كان قد انتحر بتفجير سفينته وتمزقه إربا، أو أنه سقط في البحر "فالتقمه الحوت وهو مليم" وأثناء وجود ابن رحمة ذلك في عُمان، جرى خلاف بين أفراد من آل بوسعيد، فاقترح عليهم أن يتوجهوا للإمام تركي في الرياض، ويطلبوا منه فقهاء يدرسونهم الشريعة وقاضي، على أن تصحبهم فرقة عسكرية كافية للحماية من قرابتهم، الذين لا يرغبون في عودة الأمر بالمعروف إلى مسقط. ولأمر ما سارع الإمام بتكليف العفيصان وجنوده للتوجه مع الفقهاء والقاضي، لكنه أمر بعدم تجاوز البريمي حتى تتبين الحال. بعض رجال العفيصان في البريمي تعرضوا لقافلة متجهة للهفوف، فاستشاط حاكمها (العريعر) غضباً وقرر أن يتخذ عمل تأديبي ضد من اعتدوا على رعيته، وأخذ يعد العدة لغزو الرياض والقضاء على إمارة ابن سعود الوليدة. إلا أنه استبدل ذلك بإرسال أحد اخوته للعتش، مع جيش كبير لإنشاء مستقر لهم هناك على أطراف نفوذ الرياض،

لاختبار نوايا وقدرات الإمام تركي وإمارته الجديدة، الذي بدوره قرر ارسال قواته بقيادة ولده فيصل بن تركي للدفاع عن رعيته في العتش. اندهش الجد من تلك القصص المشوشة والملتبسة مع بعضها، حيث داخلتها أحداث فيها ابن عريعر وابن رحمة وابن تركي، مما يصعب فهمه وادراك مغزاه، فقال له أحد الرفاق إن وراء الأكمة ما ورائها.

لما وصلوا ديوانية سبيع في الحاير سمعوا من بعيد لغط وضجيج، مما لم يعهد بين السبعان الذين يوقر بعضهم البعض، ولا تتعالى أصواتهم على القريب أو الغريب، الا فيما ندر من بعض أشخاص ابتلاهم الله بالعادة الكريهة، عن غير قصد اساءة لأحد، لذا آثر الجد عدم الدخول على جماعته وهم في تلك الضوضاء، وقرر البقاء في الخارج حتى تسكن الحال. أثناء تريثه علم من الخدم أن هناك خلاف بين الصييفي وأبو ثنين، حول المناخ في الشرق حيث سيتجهون صباح الغد، فبعض القوم يرون وجوب الوقوف مع العريعر، وآخرون يرفضون ذلك ويودون القتال في صف ولد "ابن سعود"، وكل يأتي بحجته ليقنع الاخرين بالانضمام معه. شعر الجد بغصة لما سمع ذلك فليس من طبائع عشيرته الاختلاف، وتحاور مع رفاقه من آل خثلان وكادت الآراء تجمع على البقاء مع آل سعود، والوفاء بعهودهم معهم منذ القرن الماضي، فهم لم يعرفوا الخوالد إلا أنهم أمراء الحسا، مع تدخل محدود منهم في نجد إذا وردتهم توجيهات من والي البصرة، لأن رئيسهم يعتبر "المتصرف" في الجوار، ويدعى أحيانا "قائم مقام" الوالي. حضر الشيخ فراج وصاح فيهم لا كلام عند الطعام، فوجد الخثالين الفرصة ملائمة للدخول والسلام على الحضور وقوفاً، بادر الجد بالسلام على أبو ثنين لأنه الأكبر سناً، وليس لأنه من بني عمر عشيرته القريبة، ثم عانق الصييفي وحادثه قليلا حيث لم يره منذ سنين. ولما انصرف الناس عن المائدة، تبين أن فراج قد أعد مجلس "مختصر" حضره أعيان من كبار السن من عشائر سبيعية متنوعة ومن السهول. كان من بينهم ثلاثة من آل خثلان أحدهم الجد، الذي كان يعرف تفاصيل الخلاف الذي جرى قبل عشرين سنة، بين الصييفي وإمام الدرعية عبدالله (المشنوق) ووالده الإمام سعود (أبو شوارب) وما لحقه جراءها من أذى. كان صاحب المكان قد استبعد ذوي الثرثرة والضجيج والعمال، ومع ذلك فقد بقي شيء من الحدة في القول مما لا يرضاه الكثير، ومن ذلك ما تفوه به أحدهم بالقول بوجوب ترك ذرية ابن سعود، لأنهم لا يوقرون من يخلص لهم ويرون ذلك واجب على الجميع، كما أنهم عند ضعفهم يتقربون لمن يأنسون فيه العون، وعند غناهم يبصقون في يد الصديق! فأيده آخر بان ذلك في أوائلهم أما اللاحقون فهم "يض؟؟؟ن" في يده. عندها رأى الجد وجوب كلمة الحق، فقال إن الكثير قد قاسوا من تصرفات "أبو شوارب" في زمن الاضطراب، لكنه يشهد أن الأمير عبدالله بن محمد بن سعود، كان ذو حلم وخير لما جاء بلدتهم زمن ولاية أخاه الإمام عبد العزيز، وأما ولده الإمام تركي فقد عرفه قبل حرب الدرعية وأثناءها، ثم في الفترة التالية لذلك وشهد منه جودة التفكير وحسن التدبير والوفاء للرفاق، وأنه لما استنكر بعض الشدة ضد المخالفين (مثل المعمر) أوضح له الرجل "إن الأمور العويصة

تستوجب استخدام القوة المفرطة" لتلافي ما هو أسواء، وهو الآن قد أرسل جنوده للدفاع عن آبار سبيع في الصمان من غزوة الخوالد، فهل نقف ضده ومع من لا نعرف عنهم إلا القليل، وأثناء عبورنا ديارهم مثل غيرنا من السابلة. أيده أحد العرينات بالقول أن العريعر قد ذبح عدد كبير من السبعان، وهم مربوطين في الحبال يتهمهم بسرقة بيضة، كما اتهم الكذابون يوسف عليه السلام، ثم أرسل حشد من الجمال المريضة كدية للمذبوحين، ولم يعرف قدر لقبيلتنا ومكانتها معه طيلة السنين الماضية.

ثم قال آخر إن سبيع لم ترى إلا الشر حينما تقف في صف الخوالد والعنوز والعجمان، ثم تساءل عما إذا كانوا قد نسوا ما جرى في الرضيمة قبل سبع سنين؟ أحد السهول أوضح أن معظم ما يدفع الرجال لاتخاذ قرار ما يكمن في "المنفعة والكراهية" ثم بين أن اكثرنا يجد في مساندة ابن سعود مصلحة ظاهرة، سواء لنفسه أو لعشيرته وجيرانه فهل هناك منفعة من مناصرة العريعر؟ وانبرى آخر نعارضاً الصبيفي بالقول، ان كل الحكام يقدمون مصلحتهم الآنية على كل اعتبار، وقلة منهم يحرصون على التخلق بالوفاء والكرم، لكن بلا امتداد زمني طويل. ونعلم جميعاً أن بني خالد (العريعر) وبنو حنيفة (آل سعود) وبنو هاشم (أشراف مكة وسعدون المنتفق) كلهم على نفس المنوال، من يواليهم يحبونه ويقدرونه في لحظتها، ومن يعارضهم ينسون كل فضل سابق له، فيبطشون به أو يسحقونه، وإن الإمام تركي من أقلهم سوء فيمن حولنا، أما ما جرى من "أبو شوارب" قديما فهو طبع جاف لديه، أصاب الجميع شيء منه ولم يسلم من قسوته حتى أولاده وعمه، وقد ذهب الآن لحسابه ولا تزر وازرة وزر أخرى. بين لهم أحد رفاق الصبيفي أن إمارة ابن سعود وذريته في الدرعية، استمرت أكثر من سبعين سنة لم يرى منهم العرب سوى التمسح الباهت بالدين وتكفير من لا يواليهم، وقد بطشوا بأهل البلاد الذين وقفوا معهم زمن ضعفهم، وحتى مرتادي الحرمين لم يسلموا من أذاهم، فقتلوا الكثير ونهبوا موجودات الحجاج والحرم. وتوسعوا في أخذهم ديار الناس، وكبروا اللقمة حتى غصوا بها، ولم يسلم من ظلمهم وتكبرهم قريب أو بعيد، وهادنوا النصارى وأعداء المسلمين من انجليز وفرانسيس، وقدر الله أمره عليهم ودمر الترك الدرعية وشنقوا حاكمها وانتهى أجلها، ومحاولة تركي إحياء العظام وهي رميم، سيقود للفشل وتذهب ريحه، ومن يساعده لن يجني سوى الخسران المبين! وكان كلامه متهدج وظهرت عليه علامات السخط. تحدث الجد للرجل بمودة قائلا إنه يأمل منه ألا يجعل أبناء قبيلة سبيع يقتل بعضهم بعضا، حيث إن ذلك من ديدن بعض العشائر الكثيفة، وعلينا أن ننزه أنفسنا عن مماثلة البعض في أعمالهم الدنيئة، ونجنب جماعتنا سفك دماء بعضها، ثم ناشده الله أن لا يكون سبباً في فتنة كريهة، فأيده عدد من الحضور. لكن آخرين رفضوا ذلك مبررين حالهم، بأن سبيع ذات عزة وكرامة وقرارها ليس مملوك لأي أحد آخر، ومن يسيء اليهم لا يتوقع أن تطأطئ له العشيرة رأسها، وتسير خلفه كأنهم بعض الخدم، ثم أنشد قول التغلبي في معلقته

ألا لا يجهلن أحد علينا ******** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ألا لا يعلم الأقوام أنــا ******** تضعضـــعنا وأنا قد ونينـا

إذا ما الملك سام الناس ******** خسفاً أبينـا أن نقر الذل فينا

شعر الصييفي ورفاقه بشيء من الخجل لوقوف جمهرة القبيلة وحلفائها السهول، ضد اقتراحه بالقتال مع العريعر ضد الإمام تركي، لكنه أبى أن يقر بمخالفته للجماعة، وأكد وجوب عدم الرضوخ لمن أخطاء بحقهم، وإن على سبيع أن تكون سيدة قرارها ولا ترضخ للطغيان والبغي، فهم بايعوا على كتاب الله وفيه إنه "ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي" وهم ليسوا أتباع مستعبدين، ولما الحوا عليه أفادهم أنه سوف يعيد النظر في المسألة برمتها ويستخير الله.

كان شهر رجب قد بداء ينصرم، ودخل برد الشبط الأشهب في الحائر، لذا سارع الخثالين بالعودة لديارهم، سائلين الله أن يرشد بقية جماعتهم لعدم الوقوف في صف المناوئين، مع اكبارهم لعزة نفس الصييفي ورفضه الهوان والمذلة. بعد أيام جاء مندوب من الدلم يدعو للجهاد، فاعتذر الجد عن المشاركة بسبب حاله، وقدم الدعم لجنود الإمام بركائب وسلاح ومال وزاد، حيث توجهوا من هناك إلى خفس يقع شمال غرب الأحساء وشرق العرمة، ليلتقوا مع مقاتلي الإمام الذي أرسل ولده فيصل ليتولى القيادة نيابة عنه. في رمضان وردتهم أنباء كريهة أن القوم لم يحترموا شهر الصيام والقيام، وأنهم يتأهبون لسفك الدماء في تلك الأيام الفضيلة، لكنه اطمأن لما أخبره أحدهم أن الصييفي قد أطاع بقية عشيرته، ووقف في صفهم مع قوات الإمام تركي التي يقودها ولده الأمير فيصل. لكن عاوده الغم لما أنبأه آخر أن الصييفي قد اختار الوقوف في صف البغاة، الذين يريدون التوجه نحو آبار مياه سبيع (حفائر العتك) ليستولوا عليها، لهذا فهم معتدون على ديار المسلمين بدون وجه حق، وهو بذلك قد أحدث صدع غائر وشرخ عميق وجرح دامي، لما وقف مع أعداء عشيرته المعتدين عليها، وجعل قبيلته مثل أراذل البشر الذين يقتل بعضهم البعض، لكن القرابة عزوه بالقول أن لكل قاعدة استثناءات قليلة تؤكدها ولا تنفيها. ثم تضاربت الأنباء فقال آخرون إنه لم يقاتل مع أي من الطرفين بل اعتزل القتال كلياً، والله يعلم مدى صحة ذلك، حيث إن الجد لم يحضر الواقعة ولا يقطع بصحة أي من أخبارها. بعد العيد جاء نباء ذهاب الإمام بنفسه لنجدة ولده، ومعه حشد ضخم من أهل العارض، وقيض الله لهم نصر كاسح على بني خالد، الذين فروا هاربين للعراق ولم تقم لهم قائمة. بعدها بشهور جاء بعض الحاسدين للإمام بوجود بعض بدو سبيع من أتباع الصييفي، فأمر بمصادرة ما معهم وحبس نفر منهم، لكن وجهاء سبيع ساروا نحو ولده فيصل، الذي بين لأبيه عدم صحة ذلك، فأطلق السجناء ورد الأنعام وأكرمهم بالعطايا، مقدراً مواقفهم معه رحمه الله. لكن بعض الخطاطين من أهل الضغينة، ما زالوا حتى الآن يبثون سمومهم وحقدهم ويفترون على سبيع بأقاويل كاذبة، وللأسف أن أناس يصدقون الافتراء ويبحثون عما يجرح وفاء المخلصين، بل ويعدون تلك الأكاذيب والتدليس مراجع تاريخية موثوقة، وهي ليست إلا نقولات محرفة نتيجة حسد وضغينة، ضد بعض السبعان في سدير لما حباهم الله

من فضله. علماً أنه لما جاء بعض أهل سدير عند السبعان فارين من يطش قرابتهم، وجدوا الترحاب والكرم لمن لا يستحقه، وكما قيل قديماً ومن يجعل المعروف في غير أهله ' ' ' ' ؟ أو إذا أكرمت اللئيم تمرد. ويلزمني التنويه بأن ما سردته هنا نقلا عن والدي عن عمه زيد عن جده علي، وأربعتنا لسنا محايدين بل نتعصب لعشيرتنا، لكن حاشا لله أن نكون مدلسين على الغير، كما أغفلت بعض الوقوعات لأن ليس كل ما يعلم يقال، وروي إنه كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع أو ما قراء، نسأل الله أن يجعلنا من أهل الرشاد، ومن لديه خلاف هذا فليتفضل بتزويدنا بما لديه عسى أن ينفعنا، وهو الهادي إلى صالح القول والعمل.

في السنين التالية استمر الجد يتابع شئونه في الحريق، وتجارته خارجها حيث استتب الأمن في الهفوف، وتسهل الأمر بعد أن قرر قواسم رأس الخيمة، تجاوز قرابتهم في الشارقة بفتح مخازن لهم فيها، يجلبون للأحساء أشكال من البضائع المتعددة الأصناف، سواء من سفنهم المتعاهدة مع الانجليز، أو من مسقط وحضرموت مما يسر نقل السلع بأمان، فغدت تصل اليمامة بكلفة أقل ومنها تنقل مباشرة نحو الشمال، وبدون المرور على الحريق حيث الأعين المتلصصة. في تلك الفترة حدثت اضطرابات يسيرة في عُمان، وتنازع بعض آل بوسعيد مع بعضهم، وكالعادة ظهرت أصابع أحد أبناء رحمة، الذي عاد لتحريض الرياض ضد مناوئيه من آل خليفة في منامة اوال (دلمون البحرين) ثم استغاثوا ببعض الهواجر ومرة. فلما تفاقم النزاع وخشي الإمام تركي من حدوث اضطراب يسيء لمكانته الجديدة، كقوة مهيمنة على وسط وشرق جزيرة العرب، في ظل تناقص نفوذ بني خالد، لذا أرسل ولده إلى هناك ومعه أمير الخرج وتوابعها (العفيصان) الذي كان في معيته نفر من أعيان اليمامة، كما اصطحب الأمير فيصل بن تركي حشد من رؤساء مدن سدير والوشم والقصيم وحائل، ليتمكن من القضاء على أي فتنة هناك، أما قيادة الجنود وترتيب السلاح والزاد والعلف، فقد تولاه أمير الأحساء ونواحيها (عفيصان آخر) بينما "بشر ابن رحمة الجلهمي" يحيك بعض الأمور هنا وهناك، ظاناً أنه سيستعيد ملك أبيه في الدمام. إلا إن الجد لم يكن مع آل خثلان في تلك الغزوة المستقرة في سيهات، غير بعيدة عن القطيف والمنامة وراس تنورة، لذا فلم يسرد شيء مما وقع هناك. وفي الحريق بينما هم صائمون تاسوعاء في أولى سنين منتصف القرن (13هـ) إذا صريخ مهرول من الرياض، يحمل نباء نزل عليهم كالصاعقة، لقد قُتل إمام المسلمين تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، وذلك أثناء مشادة بين بعض خدمه وآخرين، فأصابته ضربة من حديدة طائشة ومات.

بالاستفهام من ذلك القادم المرتج تبين اضطراب قوله، مما أدخل الشك في صدقه وأنه لم يحضر الواقعة، بل سمع عنها، لكن في اليوم التالي جاء آخر برواية أقل اضطراباً، حيث قال إن الإمام قد قتل بطلق ناري من أحد عبيد الأمير مشاري بن عبدالرحمن، وهو ابن أخت الإمام والذي كان يوقره كثيراً، لكن لأمر ما دبر مكيدة التربص له عند خروجه من الجامع فقتله عمداً. ومن المعلوم أن ذلك القاتل ليس من ذرية مؤسس حركة

الإصلاح، بل هو من حفدة أحد إخوة الإمام محمد بن سعود (مشاري بن سعود) ورغم أن الإمام تركي قد أكرمه عند عودته من منفى مصر، وعينه أمير بلدة منفوحة إلا إنه كان مرتج الفكر سيء التدبير، رغم ما لوحظ عليه من شجاعة (تهور أخرق) واقدام على اقوال واعمال غير منضبطة، ولم يعلم أحد ما دفعه لقتل خاله وهل هناك من حرضه؟ بعد أيام جاء رجل آخر برواية مختلفة، فقال إن مشاري لم يباشر قتل خاله بل قام بذلك خمسة ملثمين، فأمر مشاري بغلق أبواب الجامع لما أخذ الناس يهربون من المعمعة، ثم طلب من المصلين في الروضة والصف الأول، أن يبايعوه بيعة شرعية حتى لا تكون فتنة. ولما رفضوا ذلك تهددهم ورفع سيفه وبندقيته، فتوجه لمصافحته بعض العامة ومنحهم نقود من كيس معه، ثم توعد أعيان القوم إن لم يبايعوه، فاضطر بعض من آل مقرن وآل الشيخ لذلك مكرهين، ثم دخل قصر الحكم وأمر بفتح خزائن الإمام، وأخذ ما فيها ووزعه على الذين قبلوا الانضواء معه. جاء للحريق مندوب من الدلم يأمر كبار الأسر في البلدة للتوجه للرياض، معللاً ذلك بأن الإمام تركي قد توفي وقد بويع مشاري خلفاً له، وأن العفيصان معزول عن إمارة الخرج، وعلى الجميع التوجه عاجلا للبيعة، ومعهم ربع الزكاة المستحقة عن العام التالي، لتسليمها لبيت المال هناك. تشاور آل خثلان في الأمر وأجمعوا على رفض ذلك، وقال أحدهم "ذروني أقتله" فلا نقبل ولاية لمجرم، لكنهم اكتفوا بطلب كتاب ممهور من ديوان الحكم وبينوا شكهم في قوله. في مستهل الشهر التالي عاد للبلدة جماعتهم الذين خرجوا مع الأمير فيصل، وبينوا أنه كان يسكن في قلعة (قصر) بشر بن رحمة، التي شيدها أبوه على أنقاض حصن صغير أقامه البرتغاليون قبل أكثر من قرنين، بينما أقيم مخيم كبير شمال الدمام يسكنه أهل جبل شمر والقصيم وسدير والخرج واللدام. وقبل مغيب قمر الليلة الخامسة وقد أوى الكثير للنوم، فزعوا من تعالي أصوات البكاء والعويل من جهة القصر، فأسرع البعض منهم جنوباً لتبين الحال، وعادوا لهم بخبر مصرع الإمام وأن الكثير من الخدم وبطانة الأمير قد أصابهم الوجل، لكن قائدهم تمالك نفسه وركن إلى الصبر والتريث لحين انجلاء الأمر. بعد صلاة الصبح جاء نجاب آخر بنبآء يقين، فاسترجع الأمير وتقبل تعازي ومواساة رفاقه، لكنه لم يتعجل العودة للرياض لحين اتضاح الأمر ومعرفة التفاصيل، حيث لم يستسغ الكثير دعوى أن كافة أهل الرياض وأعيانها قد بايعوا مشاري، وعاهدوه للدفاع عنه والعمل معه في المنشط والمكره.

أرسل الأمير فيصل بعض خواصه على عجل برسائل للرياض، ثم قرر المسير نحو درب الجنوب، ثم انحرف غرباً فجعل أرض يبرين على يساره، ومناطق الحرض على يمينه، وكان يمشي الهوينا حيث أظلتهم قطع من السحب، خففت من حرارة شمس آخر برج الثور. لما اقبلوا على السهباء رتعت دوابهم في بقايا حشائش مطر الربيع الغزير، فارتاح العمال من تدبير العلوفة. لقد كان ذلك الدرب طويلا لكنه أقل وعورة من الطريق المعتاد، حيث يخرج المتعجلون من القطيف غرباً صوب مرتفع العرمة، ثم يميلون يساراً نحو السلي ومنه يدخلون الرياض من شرقها خلال خمسة أيام. كان المرجح أن

فيصل اختار ذلك الطريق لحاجة في نفسه، ولاحظوا وفود بعض الرسل نحوهم ومعهم مكاتيب من الرياض، وبدا أن الأمير يعد بإحكام لوسيلة استعادة عاصمة أبيه، رغم تزايد المؤيدين لابن عمته (مشاري) قاتل الإمام. استغرقوا عشرة أيام للوصول إلى شرقي الخرج، وهناك أناخوا ركائبهم ونصب العمال مخيم للإقامة، ثم استدعى الأمير فيصل كثير ممن معه من أهل اليمامة وسدير والوشم، وأرخص لهم للعودة إلى ديارهم للبقاء على أهبة الاستعداد حتى يردهم أمر منه، وبقي معه رجل شديد من شمر (طيء قحطان) وآخر من بني ثور (عنيزة) ومع كل منهم مقاتلين أقوياء، كما أبقى لديه عفيصان الأحساء وابن عمه أمير اليمامة. قال للجد أحد قرابته ممن عاد للحريق، إنه رغم تكتم فيصل وبطانته على ما يردهم من الرياض، إلا ان ما رشح يبين أمرين خطيرين، أولهما أن مشاري قد أرسل للحناكية نجاب يبلغ رسالة لأحدهم، ربما تتضمن استدعاء عساكر الترك من المدينة وينبع، لمعاونته في تثبيت حكمه في الرياض، ورسالة أخرى للشريف عون في مكة بطلب مساعدة. وثانيهما أن آل سويد في جلاجل قد وفدوا في بضع مئات، لمساندة مشاري القاتل وقد استقر معظمهم في حصن "دهام" القديم، والبقية في معيته داخل قصر الإمام تركي.

بقي الجد وكافة أهل الحريق في قلق وتوتر، حيث لاتصل الأنباء من الرياض إلا بعد أيام، والبعض يتحفز للتوجه إلى هناك للقضاء على الشاب المتهور، الذي فسدت طباعه من مخالطة المفسدين من أرناؤوط وبشناق وألبان في مصر. ثم خزه ابليس ليقتل خاله إمام المسلمين وشيخهم، ظاناً أن أهل التوحيد سيرضخون لنزواته الفاسدة، لكن الجميع نصحوهم بطاعة ولي دم الشهيد (فيصل) والتريث لحين تبين الأمر. كان الجد علي يتابع محاصيل صيفه ورعاية مواشيه، حيث كان الربيع المنصرم موسم خير وبركة في الحريق وأطرافها. لما اكتمل بدر الشهر التالي أقبل رجل من الرياض يحمل بشارة انتصار الأمير فيصل، وأنه قبض على مشاري وحاكمه ثم نفذ فيه القصاص، أمام باب الجامع حيث قُتل الإمام، كما وجه العفيصان ليعود سريعا للدلم "يُجوّد" اليمامة (أي يمسك شئونها بشكل جيد) وقد اصطف الجميع بمن فيهم أهل جلاجل لمبايعته على السمع والطاعة. مضت عدة أيام جاء بعدها مندوب من العفيصان، يدعو كافة أعيان الحريق للتوجه نحوه في الدلم، ولما تجمع الكثير من الفُرع والحوطة والأفلاج، توجهوا معه للرياض لمبايعة الإمام الجديد. ذات مساء تسامروا في حديث ودي، فقال أحدهم لله در كرسي الحكم فهو يدفع الناس للصراع والتزاحم للفوز به، وقال آخر إن الشهوات المُزينة للناس، من النساء والخدم والقناطير من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث، تجتمع كلها لدى الحاكم ذو السلطان العالي، لذلك يتناحرون للحصول على الرئاسة والإمارة. وقال آخرون مثل ذلك وأشادوا بمتعة العيش في بحبوحة ورفاه، ثم توجه العفيصان للجد يستفسر عن صمته حيال ذلك، ويطلب ابداء ما يراه حيال الأمر، فرد عليه بالقول "قاتل الله مقاعد السلطة" فهي تبعث على قسوة القلب والظلم وسفك الدماء وسلب المال، وأسواء ما فيها بغض الآخرين له وتمنيهم زوال السلطة

عنه وتحولها لهم. وبين أن بعض الصحابة من قوم موسى، قالوا لنبيهم أن يبعث لهم "ملك" يتولى قيادتهم للقتال في سبيل الله، فلما قال لهم "إن الله بعث لكم طالوت ملكاً" سارع كل منهم للقول إنه أحق بالملك منه، فحسدوه وتمنوا زوال ذلك إلى كل منهم. لهذا نرى أن مقعد الرئاسة عقيم فيقتل الرجل قرابته ليستولي عليه، فإني أكره ذلك المقعد ولا أساند من يقاتل في سبيل الفوز به، ولما مازحه أحدهم بانه لو ذاق لذة السلطة لنازع القريب والبعيد عليه، وقال آخر إن كلامه هذا غير معهود، والناس منذ قديم الزمن يتدافعون ويتنافسون للحصول على الرئاسة، فرد عليهم أن من أنار الله بصيرته يعلم ذلك مبكراً ويعرض عن الخطايا في ابتغاء التعالي. ثم بين لهم أنه لما كان في الشام (حوران) قبل سنين، اشترى مخطوط به نبذة عن حياة عبد الملك بن مروان، الذي وهبه الله السلطة على أرض من الصين إلى مراكش قبل ألف سنة، بل وحاصر ولده "مسلمة" القسطنطينية، وقراء فيها إنه لما حضرته المنية، انتبه على ضجيج أسفل نافذة قصره، فقالوا له أنهم غسالين قرب بردى وسيأمرونهم بالكف، فنهاهم عن ذلك قائلا "يا ليتني كنت غسالا ولم أتولى هذا الأمر" ثم أخذ يسب الصراع على المناصب، وتأسف كثيراً على قتله "عمرو بن سعيد" وولده، وهو أموي قريب له نازعه الولاية، فهذا لم يدرك الحقيقة إلا متأخراً، وقال إنه يحمد الله أن وهبه أهل وعشيرة يحبهم، وعنده مال وزراعة ودواب وتجارة وخدم، وهو آمن في سربه معافى في بدنه فكأنما حيزت له الدنيا، فلماذا ينازع المسلمين ليتولى الرئاسة عليهم؟ ثم أردف قائلا إنه يقول لراحلته "إخ إخ" اقتداء بخال المصطفى (اعتباراً لأنه من زهرة) لما اشتد النزاع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ولا يشهر سلاحه إلا على من يعتدون على دماء وأعراض وديار المسلمين بدون وجه حق، عملا بأمره سبحانه "وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين" ولتكون كلمة الله هي العليا، أو إذا رأى فئة مؤمنة تبغي على أخرى وأبت الصلح.

في اليوم التالي لوصولهم الرياض رتب العفيصان دخولهم على فيصل، فبايعوه بالإمامة والسمع والطاعة على ما في كتاب الله وسنة نبيه، والح عليهم الجلوس عنده حتى الظهر، وعلى مائدة الطعام أخذ الجد علي يحدق في الإمام، الذي كان قد رآه لمحاً قبل ذلك، ويقارن بين حاله زمن أبيه وما هو عليه الآن، كما محص الفرق بينه وأخوه (فهد شهيد غبيراء) الذي عرفه جيداً اثناء حرب الباشا على الدرعية. ظهرت علامات على رقة عيشه ونعومتها، فرغم تجاوزه الأربعين إلا أن مظهره يؤشر على بعده عن منتصف العمر، فقد ولد ثم ترعرع في حقبة الثراء والدعة في الدرعية، وبدا أن اقامته في المنفى لم تكن في شظف. كما لاحظ عليه مناقب عالية ولفتات رزينة وخصال حميدة، تنبئ عن قدرات قيادية جيدة وخلق حميد، إلا انه طالع بقلق ارخاء سمعه للخدم، وبعض الإعراض عن علية القوم ورؤسائهم، وسأل الله أن يرشده للصواب. تبين له أيضاً أن الإقامة في مصر نحو عشر سنين، تؤثر على الطباع والفكر والتعبير، وهي في ذلك الحين تعج بأقوام من نحل وملل شتى، وأن أساليب المماليك الذين حكموها منذ

زوال دولة "بني أيوب" رغم سيطرة العثمانية منذ ثلاثة قرون، ما زالت تسود تلك الديار المباركة، وسواء كانوا برجية أو بحرية أو شراكسة، فقد كانت طبائع أولئك القوم الذين جلبوا لمصر من ضفاف بحر الخزر، قليلة النبل ويسيسون الناس بشكل يشبه سياسة الخيل والدواب، وسواء كانوا من تركمان (تُرك ايمان) أو قزخ أو ازبك وفُرس أو قوقاز وأذربيين أو خوارزمية، فقد كانت أكثر تصرفاتهم غير طيبة، وقلة منهم الذين يتسمون بخصال الوجهاء. لقد زار الجد عدد من مناطق بلاد العرب، سواء في جزيرتهم أو محيطها بالعراق والشام، لكنه لم يحظى بزيارة أرض الكنانة، وكل ما عرفه عن أهلها هو ما رأى منهم عند الحرمين، وما سمعه من الرفاق الذين كانوا يتجهون لمصر لبيع الأنعام والمواشي هناك.

في مجلس مزدحم القى فيهم الإمام فيصل كلمة مطولة، ردد فيها عدة مرات الحرص على "المعروف والمنكر والتوحيد" ولب الحديث هو عن دفع الزكاة الشرعية، ووجوب المسارعة في أدائها لعماله مستوفاة وعدم غل شيء منها. فهم من أحد العاملين في القصر (ذو جذور حريقية) إن الإمام وجد الخزائن خاوية، حيث أن مشاري قد أنفق كل ما فيها، لجلب المؤيدين له بعد أن اغتال خاله، لذلك فهو يريد من البعض أن يدفعوا جزء منها مقدماً عن السنة القابلة، وقد اعتذر الكثير بعدم حملهم المال، لكن الجد رأى وجوب مساندة الإمام الجديد في ذلك الطور الحرج، حيث في بدء ولايته لابد من موارد تدعم جهده لتوطيد سلطانه. توجه الجد لأحد تجار الرياض المتعاملين معه، واقترض منه مال يعادل نصف خرص العام السابق، ولما ذهب يودع الإمام عائداً لبلدته دعاه لزيارة الحريق فشكره متبسماً. كان الجد يعتمد قاعدة قديمة هي أنك "تحزر" الرجل من قفاه، ولا تُقدِر حاله إلا إذا رأيت وجهه، لكنك لن تعرفه إلا إذا سمعت حديثه، وستسبر غوره إذا كلمته وكلمك فذلك كتاب تقرأه إذا كانت فهيماً. ولما استفسر منه أحد الحاضرين في وليمة أعدها أحد أهالي الحريق للجماعة، عن انطباعاته حول شخصية الإمام الجديد أفاده أن الرجل ذو خصال طيبة ومناقب حميدة، إلا ان الجناية الفادحة باغتيال والده، ما زالت تشوش عليه في تعبيره وتفكيره، كما أنه لم يتحادث معه مطولا ليسبر غور طباعه، وما يزال الوقت مبكراً لتصور سبل أدائه لأعمال المنصب الجديد، الذي آل اليه بشكل مفاجئ وفي حركة دموية أليمة، وختم بالدعاء أن ينير الله بصيرته ويهبه بطانة صالحة. في تلك المائدة كان معهم رجل حضر أحداث الشهرين اللذان جرى فيهما الاغتيال، ثم تولي مشاري السلطة وانعقاد البيعة له، ثم عودة فيصل للرياض واطاحته بابن عمته وتولي الحكم. وقد قاطع السرد رجال حضروا بعض الوقائع، وكل منهم يقدم رواية مختلفة لما يقول إنه شاهده، لكن بعض ما ذكروه يستند إلى ظن أو شبهة وليس حقيقة مؤكدة، حيث تتضارب الأقاويل مع بعضها حتى في أساسيات الأحداث وليس في التفاصيل فقط. وحيث إن الجد لم يحضر تلك المجريات، فلا يمكننا القطع بصحة أو خطاء بعض ما ورد على لسان من لم يحضر ولم يرى، بل أن بعض الرواة يشك في سلامة قدرتهم أو نيتهم! فكل يقص على الناس ما يراه ملائم

للمقام، وقد تختلف الرواية باختلاف الزمان والمكان والمستمعين، وقد ذكر لي بعضكم يا أحبتي أن تلك الحادثة مفصلية في تأسيس وطننا، لذا لم أقدر على الإعراض عنها واهمالها، بل اترك لكم تمحيص ذلك وعرضه على ما خطه بعض المؤرخين، الذين كتبوا لغرض مالي أو للتعالي وبث الحقد أو بطريق الخطاء. في تلك الوليمة قال أحد العقلاء (وهم قلة) إن الأمير فيصل وصل من الخرج للحاير بعد جمعتين من مصرع أبيه في نفر قليل، وكاتب من يثق فيهم داخل الرياض، ثم شد رحاله جوار الحبونية، وجاءه مريدوه في الخفاء، وكان الناس فيها مسرورين وفي بحبوحة لما منحهم مشاري (القاتل) أموال جمة. وفي ضوء القمر تقدم مع رهطه نحو أحد مداخل البلدة، وقام رجال تم الترتيب معهم مسبقاً بفتح بوابة دخلوا منها، وتركوا قصر (حصن) دهام واتجهوا نحو قصر تركي، لكنهم لما حاولوا التسلل داخله كشفهم بعض الحرس، وجرى تبادل إطلاق النيران في الهزيع الأخير من الليل، وتم سد كافة المنافذ فعرف فيصل استحالة الاقتحام، لذا سارع بإرسال البعض نحو الحصن الشرقي، حيث استسلم أكثر من فيه لما عرفوا بعودة ولي الدم لمقر اقامته. عند الصباح تبين أن قصر الحكم قد حصنه مشاري، ومعه بالداخل عدد من أتباعه وخدمه، إلا أن القوة المسلحة كانت في معظمها من أهل جلاجل، يرأسهم الأمير سويد بن علي متحصنون وراء الجدران، ويرمون مقذوفاتهم من أعلى ذروة سطح البناء. ولما جاء وجهاء وأعيان الرياض للأمير فيصل بايعوه، ونصحه البعض بعدم التعجل في اقتحام المكان لسلامة المنازل القريبة، وفيها الأطفال والنساء والضعفاء، حيث لابد أن ينفض القوم من عند مشاري ثم يسلم نفسه، لكن آخرين اوصوا بعدم التريث حيث يوجد في القصر كثير من الزاد والماء والعتاد، وربما يصل من الحجاز (مكة أو ينبع) عساكر يؤيدون القاتل.

قال أحد الجالسين معهم إن أكثر من أثر في أحداث المواجهة بين فيصل وابن عمته مشاري ثلاثة رجال، أولهم يقال له زويد وهو من خواص حراس الإمام تركي، وقد ولد ونشاء في منازل آل سعود، لأب من الحبشة وكان عظيم الوفاء لأعمامه قوي البنية حاد الذكاء، وقد حضر هجوم المغتالين عند الجامع وأصيب أثناءه، لكنه تمكن من الفرار والالتحاق بجيش الأمير فيصل. والثاني هو أمير جلاجل (سويد) والذي بقي مع مشاري داخل القصر المحاصر، وقد سمعت في مجلس أبي رجال من آل سويد يقصون بعض تلك الحوادث مما سنسرده لاحقاً. والثالث هو عبدالله بن رشيد وهو من قرابة أمراء جبلي طيء (أجا وسلمى) وتسمى الآن منطقة حائل، وقد كانت له وذريته وقائع كثيرة خلال الثمانين سنة التالية، سنسردها لاحقا بإيجاز اعتماداً على ما سمعته من بعض قرابتهم، من آل صخر أهل رفحاء في مجلس أبي في نهاية خمسينات القرن العشرين. أما الأول "زويد" فقد كان له اتصال مع بعض قرابته داخل القصر المحاصر، وقال لفيصل أنهم يتبادلون الرسائل مع من بالخارج، عبر قراطيس يطوونها على حجارة تقذف على البيوت أو الدكاكين المجاورة، كما يشك بوجود نفق تحت الأرض، وقد تناقص عدد المسلحين بالداخل من أكثر من مائة إلى أقل من خمسين،

لكن احتمال وصول مدد من مكة أو المدينة خلال أيام وارد، لذا يرى وجوب الإسراع في اقتحام المكان. في نفس الوقت بدا أن الرجل الثاني "سويد" قد دخله الضجر من مرافقة مشاري المحاصر، فأرسل ما يبين ذلك لأنه مكره على البقاء، أو طامح في استعادة منصبه الذي انتزع منه سابقاً. لذا أوكل الإمام فيصل للرجل الثالث "ابن رشيد" ترتيب ذلك بينهما، وبعد عدة أيام أعد الرجلان خطة محكمة، نتج عنها التعاون بينهما لاقتحام القصر في ظلمة الليل، والقبض على مشاري وإخراجه لساحة القصاص، وعلى الفور دانت الأمور للإمام فيصل بن تركي، وبايعه بقية أهل الحل والعقد والخاصة والعامة. قاطع حديث والدي رجل طاعن في السن من سبعان الحاير، قائلا إن هناك رجل رابع أهم من الثلاثة الذين ذكرت، يقال له "حمزة العبد" وهو الذي قال كلمته المشهورة "بندق حمزة ثائرة فيك أو في خالك" وذلك عندما تآمر مع مشاري على قتل الإمام تركي، لكن سيده جاءه قبل الصلاة وقد رق قلبه على خاله، فأمره بعدم قتله ويكتفى بسجنه، لكن العبد كان قد أعد نفسه ولا يقبل التراجع عن سفك الدم. ثم إن حمزة قد كان له أكبر دور في تهيئة البيعة لمشاري، والدفاع عنه أثناء الحصار والهجوم الذي رتبه زويد وابن رشيد، فلم يجبه والدي تقديراً له لكن أحد الجالسين رد بأن قصة حمزة مضطربة، حيث لم يكن مع مهاجمي الجامع بنادق! بل طبنجات وخناجر، وقُتل الإمام بطلقة من "فرد" على الجانب الأيسر من صدره عبر "جالوسة" ثوبه الواسع. وصاح "حريقي ساذج" من أدنى المجلس بجواري "يابوخالد لقد قال جدي أمر مهم لا تعرفونه" ثم بين أنهم لما صلوا المغرب في سيهات، وشاهدوا هلال العام الجديد جاء هدهد وحام حول كنف وعمامة فيصل سبع مرات وهو يصيح قائلا "حذاري بداري - -- تركي ذبحه مشاري" فأدرك الأمير أن والده قد قتل، فرفع يديه للسماء فنزل منها حصان أبيض له سبعة أجنحة، ثلاثة على كل جانب وآخر عند الذيل، امتطاه وهو يلوح بسيف والده "الأجرب" وصاح فيهم وعدكم الرياض وعجلوا، فوصلها قبل أذان العشاء وتوجه إلى ابن عمته مشاري وقتله. قاطعه أحد قرابته بقول "يبدو أن جدك ثور مثلك" ثم تساءل هل هذه سوالف تقال عند الرجاجيل؟ لكن إشارة من يد والدي ونظرة حادة جعلتهما يكفان عن اللغو. بادر أحد الدارسين لتهدئة الحال بالقول إن ما خطه البعض عن أحداث تلك الأيام الفاصلة، يحوي الكثير من السرد الساذج الذي لا تستسيغه إلا ذائقة البسطاء، وبين للحضور أن بعض مخطوطات التاريخ النجدي، تحوي من الترهات ما يتجاوز ما ذكره الأخ، وقد رأيت في احداها سرد لرواية هرب فيصل بن تركي من محبسه في مصر، بأنه تمكن من القفز من برج يزيد علوه عن ثلاثين قامة، بأن أنبت الله له جناحين طار بهما إلى جزيرة العرب. كما وجدت في مخطوطة ركيكة أخرى القول بأن فيصل كان من أولياء الله الصالحين، الذين يعدهم بعض غلاة الصوفية فوق درجة الأنبياء، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أما المصطفى فقد كان يحزن عليهم ويضيق مما يمكرون! ويدّعون لمريديهم كرامات خارقة لا يصدقها العاقل. أردف آخر بالقول إن ما خط عن تاريخ نجد في تلك الحقبة مليء بالتناقضات، فما كتب وطبع في مصر والشام والعراق، يؤكد أن آل سعود في منفاهم المصري كانوا

طلقاء، يتجولون ويروحون ويغدون ويتعلمون ويتزوجون في مساكن جيدة، وليسوا محابيس في بروج مشيدة، كما تشير مصادر كثيرة أن فيصل بن تركي عاد لنجد بترتيب مع الباشا ولم يكن هارباً. تحدث والدي عن أن مسألة كرامات الإمام فيصل ذكرها الكثير، فقد كان الناس يتعاطفون مع حاله بعد أن قتل ابن عمته والده الإمام تركي، كما أن الخصب استمر في تلك السنة (1250هـ) وعم السكون والأمن أرض العرب، لكن الحال تغير بعدها. ثم ذكر أن بعض قرابة سويد بن علي، زاروه أثناء العمرة وناقشهم البعض حول خيانته لآل سعود ودعمه لمشاري القاتل، لكنهم أكدوا أن سويد لم يشجعه على الجريمة، بل وصل بعد أيام من وقوعها، فاعتقله مشاري وأجبره مثل الآخرين على البيع. ثم ابقاه عنده في القصر كرهينة، لذلك رتب مع المحاصِرين لمعاونتهم في دخول القصر، وإنقاذ من فيه من مكائد مشاري وأعوانه، ولم يطلب لقاء ذلك تعيينه في منصب رئاسي. بادر أحدهم بالقول إن الحكومة تعمل حاليا على تهذيب كتاب "عنوان المجد" وغيره لكثرة ما فيه من أخطاء أو إساءة للدولة، وإنه لما ذكر لهم بعض التشويش فيه قال المرجفون "ما دليلك" ورددت عليهم بالقول وما دليل ابن بشر على ما خطه؟ وما هي مصادره؟ التي تتعارض مع المصادر الموثوقة. ثم زاد بالقول انهم غدوا يعتبرون تلك المخطوطة "انجيل نجد المقدس" رغم أنه لم يشر إلى مصادره، وقد قال له الفاخري "كم ترك الأول للآخري" في تعريض بنقله منه بدون إشارة، وكذلك ابن لعبون. كما أن الخطاط قد قال إنه وجد في مكة والطائف كتب عن تاريخ تلك الفترة، لكنه لم يضع أي علامة تبين ما نقله منها، وأما التناقضات فهي أكثر من الإحصاء، فقد ذكر مقتل أحدهم في احدى السنوات، ثم سرد أنه بعد سنتين حارب أشخاص آخرين بعد موته! وهذا لو يقبل في روايات شفوية أو سيرة شخصية، فلا يقبل في سيرة دولة عظيمة تختلط فيها الروايات. سارع آخر من سدير للقول إن ذلك الكتاب يحوي عبارات تنم عن ضغينة ضد بعض الأشخاص، بخاصة عند سرده أحداث أمير بلدته (جلاجل) سويد الذي جحد كل إنجازاته وأدعى عليه خيانة الإمام تركي وولده، وأيده أحد السبعان بالقول إنه كان حاقداً عليهم ويدس ذكرهم في كل موقف رديء، ويعرض عن ذكر مآثرهم التي لا يجحدها منصف لأمانة التاريخ، بسبب خلاف شخصي مع أحد سبعان سدير. لما ورد ذكر سبيع وجد والدي الفرصة سانحة لتبديل الحديث، فقال إننا نستغفر الله مما يرد منا عن ذكر أي انسان، وعلينا أن نمحص العمل بدون شخصيات، وذكر لمجالسيه أنه قراء ورقات من كتاب البِشر، وذلك لما غادر الحجاز إلى السودان فور تنازل الشريف حسين لولده علي، وأثناء وجوده في عدن عرض عليه البعض هناك أن يرحل للهند (الكبرى آنذاك) حيث فرص عيش أفضل، ورغم تحسس رئتيه من الأحبار والأوراق إلا انه لم يجد أفضل من مطبعة في كراتشي، وهناك وجدهم يطبعون كتب في الفقه بالعربية، كما طلب منهم أحد تجار جدة طبع كتاب "تاريخ نجد" ليهديه لملك الحجاز الجديد (عبدالعزيز آل سعود النجدي) بعد ترحيل الملك السابق (علي بن الحسين) لكن العمال لا يعرفون سوى الأوردية، لذا جاء نقلهم من النسخة الخطية مليء بالأخطاء، وكان الصف اليدوي لقوالب الحروف منهك في حال إعادة فك القالب، لذا

فإن المراجعة والتصحيح تتطلب جهد كبير، ويزيد البلاء في أن الملازم غير منتظمة العدد، فمعظمها ثمانية أوجه لكن لما زاد الورق صار بعضها ستة عشر كما هو الواجب. وآفة أخرى هي سوء ترتيب صفحات الملزمة فتأتي الصفحة التاسعة قبل الثامنة، بينما تختفي كليا بعض الصفحات. بعد أن أخبر المالك إن عليهم احضار مخطوطة أخرى، غير تلك العراقية المطموسة من كتاب ابن بشر، فطلب منه أخذها معه ليلا والتأكد من عدم إمكانية طبعها قبل أن يعتذر عن اكمالها. أفادهم والدي أنه لم يتمكن من ذلك حيث أرسل الأمير فيصل بن عبدالعزيز (حاكم الحجاز نيابة عن أبيه) أحد السبعان ليعود للعمل معه، لما سمع عنه من موظفي الديوان الهاشمي. ولما ذهب بعد سنتين للمخلاف السليماني كمندوب للملك لدى الإدريسي، جاءته نسخة مختصرة من تاريخ البشر وجدها مليئة بالعلل والنواقص، إلا أن الكتاب أحسن واشمل ما وضع عن تاريخ نجد، وقد وضعه على نسق حوليات ابن كثير، وهو شبه متكامل للفترة التي عاشها المؤلف، وبعض السنين التي سبقته. خالفه الرأي أحد وجهاء مكة المكرمة بالقول إن مباشرة الحكومة السعودية في تهذيب وتنقيح الكتاب، يعني وجود أمور مسيئة فيه من الناحية السياسية، لكن ما يبدو أنهم لن يتعرضوا للإساءات العديدة فيه ضد بعض الأشخاص أو العائلات أو القبائل، والتفخيم البغيض لجماعات أخرى ممن كانوا يغدقون عليه المكارم، ولم يسلم من ذلك حتى جماعته، سواء في الوشم (شقراء) أو في جلاجل (حرمة) أو في العراق (الزبير) من تفخيم أو تصغير. قاطعه أبي بالقول إنني لم أرى الكثير من السيئات فيه، ومقارنة مع الكتب الأخرى فهو الأقل سوء، وكفى بأي كتاب أن تعد معايبه. لقد كان ذلك النقاش في موسم الحج الكئيب، الذي بعد أن عدنا منه ارتجت مكة بالعويل، لما جرى في بغداد من مذبحة فاجرة ضد ذرية الشريف حسين، حيث قتلت النساء والعجائز في قصر الرحاب، وسحل البعض حتى تمزقت أحشائهم في الطرق، ومع هذا كان البعض مؤيدين لتلك المذبحة ويسمونها بطولة، وللأسف أن أحدهم كانت "أم كلثوم" وهكذا التاريخ مليء بالشهوات. لما عدنا من مصر بعد ذلك بعشر سنين، وجدت أبي يرحمه الله يقرأ نسخة منه مطبوعة حديثاً بعد التنقيح، لكن بعض مجالسيه أفادوا أنها مشوهة ومليئة بالتصحيف والأخطاء، واخراجها غير مرتب مع اختلال طباعي.

ونعود الآن إلى سيرة الجد الذي كان مشوشاً من الروايات المتناقضة، عن حقيقة ما جرى في تلك الفترة بعد اغتيال الإمام تركي وتولي ولده فيصل زمام رئاسة البلاد، ولما عاد للحريق جابهته تساؤلات عديدة تلبسته الحيرة عن اجابتها. لذا انصرف لرعاية شؤون أهله واملاكه، كانت تلك سيرة بركة ورفاه وأمن، لذا عقد النية ثم أكد العزم وشد الرحاللحج، برفقة من يعول في صحبة قافلة أكثرهم من أفاضل الجيران، في بلدتهم الوادعة المطمئنة، واستهلوا مناسكهم في يسر بعون الله، رغم بعض الاضطراب في المشاعر من البادية، فاعتدى بعضهم على أبناء قبائل العرب، وكانوا عادة لا يتجرأون إلا على عرب العراق ومصر والشام أو على العجم. في أيام التشريق تذكر

ما قاله له أحدهم قبل سنين، من أن ما يحدث في نجد له علاقة بما يجري في محيطها، لذا قرر زيارة البعض منهم وتلمس ما لديهم من أنباء. وجد العراقيين أهل سوء ظن وعنف ولم يبادلوه المودة فأعرض عنهم، أما أهل مصرالبسطاء ففهم منهم أن بلدهم في مكابدة ومشقة، حيث ارتحلت حشود منهم للشام في قتال كريه نشب قبل سنتين، ولم يدرك منهم تفصيل ذلك. لذا توجه للمحمل الشامي فتصادف مع أحد فقهائهم، وتبادلوا أحاديث مودة وتعارف كما هو واجب بين المسلمين في الشاعر المقدسة، علم منه ان خلاف جرى بين سلطان إسطنبول ووالي مصر، تطور بعد ذلك لأن توجه إبراهيم باشا (ابن الوالي) للشام في جيش ينوف عدده على مائة ألف، وقاتل ولاة مدن الشام واستولى على السلطة فيها. ظن الجد أن الرجل يهذي بما لا يدري، ولم يدر بخلده قط أن طاغية الدرعية تصل به الحماقة للاعتداء على رجال الخليفة، لكن ذلك الفقيه ورفاقه كانوا متزنين وجادين في أقوالهم، لذا دعاهم لتناول الطعام النجدي في الغد.

جاء أهل الشام لخيام آل خثلان في مشعر منى، وقد ساهم بعض الجماعة في اكرام الضيوف الخمسة، من اللحوم النجدية الوافرة وحنطة ضرما الصلبة، وبعد حديث المجاملات الشخصية تطرقوا لأوضاع ديارهم، فقال الجد إنه قد بلغهم قبل عشر سنين ان إسطنبول قد استغاثت بوالي مصر لمكافحة قلاقل أثارها الأغريق، مما سرع في رحيل عساكرهم عن نجد وساعد في استعادة الحكم السعودي للديار. وبعد حرب لثلاث سنوات كاد ينتصر فيها الباشا، جاء مدد ضخم من النصارى لرفاقهم في اليونان، فانهزمت عساكر السلطان وهربت، لكن قوات الباشا المصرية صمدت وقاومت، ثم تهادنوا سوياً على أن يعود إبراهيم بقواته لبلده عند أبيه، وسمحوا له بالبقاء في جزر صغيرة شمال مصر كانت تابعة لليونان. قال لهم أحد الأشوام بأن أمر جلل قد حدث بعد ذلك، فقد أوغر البعض صدر السلطان على والي مصر، وأنه يخون سيده وولي نعمته ويستكين للنصارى الأعداء من روس وانجليز وفرنسيس. لذا أكثر من ارسال المحاسبين والمفتشين لمصر، الذين اتهم بعضهم عمال محمد علي بالغلول، وعدم ارسال كافة الإيرادات لإسطنبول، فاستشاط الباشا غضباً وأخذ يجاهر في مجلسه باللوم على تصرفات خرقاء من بعض رجال الباب العالي. أرسل له السلطان أحد معاونيه يلفت انتباهه لعدم لياقة التصريح بتلك الأقوال، أو بما يمس هيبة خليفة الله في الأرض وسلطان المسلمين في المشرق والمغرب "محمود خان" فزاد ذلك الطين بِله. انفجر الباشا صائحا في أحد رجال السلطان مذكراً أن والدة السلطان كادت تصبح إحدى سبايا "سعود كبير خوارج الوهابية" لولا ان جنود ولده طوسون أنقذوها، ورتب لها إتمام الحج مع المغاربة، كما أن لا أحد غيره يقدر على حماية حمى الحرمين الشريفين (سبحان من يجحد البشر قدرته!) لذا أصدر السلطان قراراته وأوامره ومراسيمه (فرمانات همايونية) بعد ان تجاوزت المهاترات الحد، وقرر عزل محمد علي عن ولاية مصر ونزع كافة الرتب والألقاب الممنوحة له وأولاده وقرابته، بل وأرسل ثلة من عنده لتتولى حكم مصر. لكن الباشا قبض عليهم وتوعدهم بالقتل، واعادهم للأستانة

خائبين مع رسالة تحذير للسلطان إذا لم يمنحه لقب "عزيز مصر" ويترك له وذريته حكم البلد مع ملحقاتها في الحجاز ونجد واليمن وبعض الشام. بعد شهور كان السلطان محمود قد أعد جيش مزود بسلاح حديث، ليذهب لمصر ويعود برأس الباشا، الذي أخبره رجاله في إسطنبول الذين يغدق عليهم العطايا بذلك. لذا أعد محمد علي جيش من "مائة ألف أو يزيدون" يقوده ولده إبراهيم باشا (سفاح الدرعية) ووجههم نحو الشام لصد عساكر السلطان. قال أحد الأشوام إن تلك القوات وصلت أسوار عكا التي عجز نابليون عن اقتحامها قبل ثلاثين سنة، لكنها سقطت في يد الباشا خلال فترة وجيزة، ولم تمضي سوى شهور قليلة إلا وقد دخل دمشق، ثم أخذت مدن الشام تتساقط الواحدة تلو الأخرى في يده. أفاد الرجال أفراد أسرة آل خثلان إن الغزاة قد ارتكبوا مخالفات عديدة ضد سكان الشام، لكنها لا تقارن بطغيان عساكر الترك، لذا لم يعمل الأهالي أي مقاومة للغزو كما حرضوهم، بل ان إبراهيم باشا أخذ يتودد للناس ويثير فيهم حمية العروبة، ويحثهم على مقاومة العثمانية وأعوانهم، كأن القوم لا يسمعون لكنته العربية المعوجة، أو يجهلون أصوله الألبانية البغيضة، أو أنهم نسوا ما قام به من المنكرات في بلاد جزيرة العرب. لكن غالبية أهل الشام أعجبوا ببسالة جنوده وقلة فواحشهم، وكيف تمكنوا في شهور من جعل الترك يتلاشون في التراب، كأنهم صنم من الملح يخافه الناس، ولما أصابته قطرات المطر ذاب في لحظة واحدة.

تحدث رجل آخر عن أن إبراهيم باشا استأذن والده، ليتجاوز بلاد العرب ويهاجم الأناضول، حيث السكان من التركمان والكرد مع حاميات عثمانية قوية، فأرسل له مدد غفير اكتسح به تلك التحصينات، وانطلق شمالاً حتى وصل "قونه" قاعدة آسيا الصغرى. وهي البلدة التي اتخذها السلاجقة عاصمة دولتهم، التي سيطرت لفترة طويلة على الخلافة العباسية في بغداد، وعاش في كنفهم "ارطغرل" الذي فر أسلافه من تركستان، بعد هجوم المغول على ديارهم. وهناك ولد ابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية الكبرى، وانطلق منها حفيده "اورخان" موطد الدولة والذي وسع مداها لتصل إلى "بورصة" على ضفة بحر مرمرة غير بعيدة عن القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية (الرومانية الشرقية) وتلك المدن لها قدسية عند العثمانيين. لكن صدى وصول الجيش المصري العظيم من افريقيا، واجتياحه للشام وقربه من إسطنبول في أوروبا، أحدث دوي هائل هز حكام النصارى في روسيا (ارثوذكس) وفرنسا (كاثوليك) وبريطانيا (بروتستانت) فقرروا دعم عدوهم اللدود "محمود خان" وعدم السماح لجيش من بلاد العرب والإسلام أن يستولي على ما يطمعون فيه. لذا سارعوا بمد يد العون والمساندة للعثمانيين، حتى ان السفن الروسية التي تحاربهم منذ ثلاثة قرون عبرت البسفور واستقرت في "القرن الذهبي" ومرمرة للدفاع عن إسطنبول، لا حباً في السلطان محمود ولكن دفعاً لعدو جديد، يريدون القضاء عليه قبل أن يتفاقم خطره. أما الانقليز والفرنساوية فقد حذروا محمد علي في شبرا والاسكندرية، من خطورة ما يقوم به ولده من مغامرات هوجاء، وزادوا على ذلك بارسال سفنهم لتحاصر موانئه، فأوقف

ارسال المزيد من المدد له، وأمره بالتقهقر جنوباً عائدا نحو "قوتاهي" حيث جرت مفاوضات طويلة أسفرت عن نصر للباشا، حيث التزم جنود مصر بالانسحاب من الأناضول، والتمركز في أضنة عند جبال طوروس التي ستكون الفاصل بين العثمانية ومصر. لقد كانت تلك خسارة فادحة للسلطان محمود، لكنه في موقف ضعيف فقوات الباشا وصلت لتخوم إسطنبول، وهو عاجز عن الدفاع عن امبراطوريته العتيدة، وخلقت الاتفاقية امبراطورية إسلامية عربية كبرى. فستصبح قلعة محمد علي القاهرة عاصمة دولة تشمل مصر والسودان حتى تونس، إضافة للحجاز ونجد والأحساء واليمن والشام الكبرى (سوريا والأردن وفلسطين ولبنان حاليا) مع أجزاء من تركيا الحالية (الاسكندرون ومرسين) مما يضعف السلطان ولا يسقط دولته. وختم الرجل كلامه بالقول ان إبراهيم باشا اشغل نفسه بقوة، لبناء تحصينات لحماية الحد الشمالي لدولته الجديدة، أما أبوه فقد توجه نحو أمراء أوروبا لشراء أحدث الأسلحة، من آل سافوي ولمبارديا وتسكانيه وغيرهم، قبل أن تتوحد إيطاليا زمن "عمانويل وكافور" لذلك أغرقوا السكان في ضائقة مالية، وفرضوا مزيد من الضرائب وتقاضوا لقاء علوفة دواب الحرب، كما الزموا الشعوب بالتجنيد الاجباري لزيادة عديد قواتهم، لذا فهم مشغولين عن أميركم الجديد (فيصل بن تركي) بنزاعهم، وبخاصة إذا ساهم في تقديم المال والرجال لهم. تساءل أحد رفاق الرجل من الأشوام عن مدينة قونه، وما إذا كانت هي مسقط رأس محمد علي باشا، فرد عليه انه ولد في "قوله" وهي مدينة في اليونان، اما "قونه" في وسط الأناضول عاصمة السلاجقة فولد فيها عثمان ارطغرل.

لم يكترث آل خثلان بالتفاصيل التي لا تمسهم مباشرة، لكن أحد العارفين قال إننا نعيش في ظلام وجهل لما يدور حولنا ويؤثر علينا، فهل كان أحد منا يعلم عن السبب وراء انسحاب بهلول المغربي المفاجئ من الرياض قبل سنوات، وتسليمها لتركي بن عبدالله وتقهقره لمصر، مما مكن الإمام من استعادة إمارة ذرية محمد بن سعود على نجد. قال آخر إنه لا يظن أن الإمام فيصل يجهل هذه الأحداث، فقد عاش في مصر عشر سنوات قبل أن يعود لمعاونة والده، وأعلم من رفاقي إنه ما زال حتى الآن على اتصال مع قرابته وصحبه هناك، ويصل كل جمعة نجاب يحمل البريد وأنباء ما يجري في مصر. نصح آخر بعدم اخبار أهل الحريق عن سوالف الأشوام، فلن يصدق أحد أن السلطان محمود قد وقع فريسة خادمه الباشا، وسيتهمونكم بالافتراء ويحطون من قدركم، لذا فدعوا عنكم هذا الذي لا يضيرنا الجهل به ولا يفيدنا معرفته، فقال له أحد بني عمه "قاتل الله الجهل" ومن يدعو له! أما الجد علي بن حمد فقد كان في ذهول مما سمعه، وفي حيرة مما إذا كان مقدار الصحة والدقة فيه عالية، كما تألم من إمكانية عودة الغزو الصليبي لديار المسلمين، إذا استفحل النزاع التركي المصري.

في السنة التالية والجد منشغل بأعماله وأسرته، رغم دبيب الضعف في جسده لتقدمه في العمر، بدأت حقبة من الجفاف في نجد، فأجدبت المراعي وغارت المياه في الآبار. فقلت النقود لدى الناس وانكمشت مشترياتهم، بخاصة من السلع الإضافية الواردة عبر

البحر الشرقي، التي يجلب الجد كميات منها ثلاث أو أربع مرات في السنة، وغدا القوم يوجهون مواردهم الشحيحة للضروريات. لكن الطامة جاءت من تصرفات بعض عمال الأمراء، حيث أصر بعضهم على تقدير الزكاة في حدود جباية الأعوام السابقة، غير مراعين تأثير الجفاف على المحاصيل الزراعية والأنعام وعروض التجارة. أدى ذلك لتخلف البعض عن سداد المفروض عليهم، وتهرب عدد من عشائر البدو من أداء ما قدر عليهم متجاوزاً إمكانهم. ثم تفاقم الأمر لما ركن الإمام فيصل لرجال غلاظ، يعاملون المسلمين بخشونة ولا يأبهون بكرائم أموالهم، لذا قاتل بعض القبائل ونكل بكبارهم، وازدادت المعاناة حينما أوكل بعض أمور الرعية لمعاونيه من الموالي (زويد وخير وخُميس وياقوت وغيرهم) الذين كان أكثرهم على قدر من الخلق الطيب والفكر الحسن، وبعضهم على خلاف ذلك لا يدركون مكانة وجهاء القوم. بعدها زاد الاستياء لدى نفر من العرب، وارتحل البعض خارج وسط جزيرة العرب واتجهوا لأطرافها، مما جعل الإمام ينصاع لرأي بعض مجالسيه، ويتطلع إلى بقاع سيطر عليها أسلافه في الدرعية، فأرسل عماله يطلبون ثلث أو ربع الخراج حتى لا يغزوهم، وقبل ذلك البعض في عسير والقطيف وعُمان لقاء بعض المزايا لهم، لكن الغالبية رفضت دفع الدراهم، لكنهم لم يعيدوا الرجال صفر اليدين، بل منحوهم هدايا من أنعام وثمار وريالات فرانسية. زادت نقمة بعض بلدات نجد وأطرافها، لما عين الإمام عليهم امراء جدد، مثل عبدالله بن رشيد الذي عاونه في اقتحام واسترداد قصر الحكم بالرياض من الأمير مشاري، فعينه لاحقاً أميراً على جبلي شمر (حائل) وخلع أمرائها منذ مئات السنين (آل مُحسن) فاهتزت الأمور هناك، وكان ابن رشيد على قدر جم من الدهاء والشجاعة، لكنه متجبر لا يتورع عن الدماء المحرمة لأتفه سبب وأثبتت الأيام حقيقته، فبعد ذلك ترك عهده مع الإمام وأيد مندوب البغاة خورشيد التركي "أخو رشيد" كما سموه العرب، أما أبنائه وحفدته فخلال السبعين سنة التالية كانوا أسواء، فقد قتلوا وجرحوا وسجنوا وأهانوا لفيف من أبناء وحفدة الإمام فيصل بن تركي. الذي تكرر منه خلع حكام بعض المناطق واستبدالهم برفاقه وجلسائه، وذلك في عنيزة والخرج والقطيف، مما زاد من نفور الأهالي منه.

ساءت مشاعر الناس تجاه الإمام فيصل، رغم ما حباه الله من سجايا طيبة وكرم نفس، لكن الضائقة المالية والجفاف جعلت قدرته على العطاء مقصورة، وتطير البعض من حال وسط جزيرة العرب في السنتين الأوائل من إمارته. ثم "زاد على البلاء أعوانه" لما اجتاحت البلاد موجات من الرزايا، فقد كثرت الأمراض على الرجال والنساء والأطفال، من حمى الرعاش وأوجاع الصدر وأمراض باطنية، كما أصابت العضلات والعظام علل كريهة، أقعدت البعض عن المشي مثل أبو الركب. ولم تسلم الدواب والأشجار من الآفات الضارة، حيث نفق الكثير منها وهزل الباقي، كما كثر الدبا والجراد وظهر العنكبوت الأزرق يتلف الثمار، وحتى شجرة النخيل القوية تأثرت

بديدان زرقاء وسوس مدمر، واستفحلت شدة الرياح المحملة بالتراب والغبار، تهب من الشمال الشرقي في عواصف سيئة.

في موسم الحج طلب الجد من أحد أقاربه المتوجه لأداء الفريضة، أن يلتقي مع بعض العارفين في جموع حجاج الشام ومصر، ويأخذ منهم أنباء النزاع المصري التركي، والوضع في شمال الشام، حيث لا ترد للحريق من الرياض سوى أنباء قليلة ومشوشة. وفي مطلع السنة جاءته أخبار ان الهدنة في الأناضول قائمة، لكن السلطان والباشا كل منهم يضمر الشر للأخر ويتربص الفرصة للانقضاض عليه، وقد بنى إبراهيم عدة حصون تعرقل اندفاع عساكر عثمانية، لمحاربته عبر جبال طوروس، ويتلقى المدد من أبيه بحراً من دمياط وبراً من مصر ثم الشام. أما السلطان فقد فهم ان أعدائه الثلاثة (الروس والانقليز والفرنسيس) لا يضمرون له إلا الشر، ورغم تظاهرهم بإيجاد مصالحة بينه والباشا، إلا انهم يريدون بقائه كمخلب هر (مسلم) يهدد نفوذ إسطنبول، ويستنزف قواها في مشاكسات محلية تشجع رعاياه النصارى على طلب الانفكاك من التبعية للعثمانيين. وأضافوا له نباء آخر وهو ان بعض جنود السلطان (آلاف) قد فروا من مواقعهم في الأناضول، وانضووا تحت لواء الباشا الذي يوفر لقواته ظروف معيشة أفضل، كما أن عدد من سفن دولة آل عثمان قد توجهت بكامل عتادها إلى "مرسين" حيث قاعدة بحرية لإبراهيم باشا، الذي بدوره قبل لجؤهم إليه وأمرهم بالتوجه نحو دمياط والإسكندرية، بعيدا عن مدفعية سفن السلطان في جنوب الأناضول.

شعر الجد بغصة أليمة في حلقه وحرقة في أحشائه واضطراب في قلبه، لحدوث ذلك النزاع الدامي بين أكبر دولتين مسلمتين آنذاك، ومحاولات النصارى استغلاله لمصلحتها، متظاهرة بأنها وسيط خير للصلح بين الطرفين، وتمنى لو يتوقف نزيف دماء المسلمين واقتتالهم لبعضهم. وسأل الله أن يطرح بركته في بقية أمة الإسلام، من جاوة شرقاً حتى الشنقيط غرباً الذين تعرف عليهم في الحج، ووجد بعضهم فيه صلاح النية وتفقه في الدين مع قلة الهمة، لكن المعول عليهم لنهضة المسلمين، هم في جزيرة العرب مهبط الوحي والشام ومصر وتركيا، اللتان تستعر بينهم حرب تسر الشامتين. لكن أحد بني عمه حاول أن يطيب خاطره، فقال أين الإسلام عندهما؟ إن الشهادتين كلمات باللسان لا يوافقها العمل، وبقية الأركان طقوس لا شأن لهم بها ويلزم عدم المجاهرة بها، والصلاة في العيدين فقط وبعض الجمع إذا اقتضى الأمر، أما الصوم فهو أطيب أصناف الطعام قبل الغروب، والحج سفر نزهة وسمعة وطبل وزمر وتتن، والزكاة ماهي إلا جباية المال لشراء أجمل الفتيات غير المؤمنات! رد عليه الجد "لقد زدتني ياأخي هم على هم ومثلي لديه ما يكفيه" ثم انصرف يسأل خالقه الرشاد.

لاحقا أخبره أحد الصحب ان بعض الشوام في الحج، يقول إن السلطان محمود كان يشعر بعدم حسن نية الروس والإنجليز والفرنسيس، لذلك بحث عن قوة كبرى في "غروبا" (أي أوروبا حاليا) الواقعة غرب شمال عاصمته، ووجد ضالته في قيصر بروسيا الذي كان يطمح لإنشاء دولة كبرى، تتكون من بلاده وعدد من العشائر

الجرمانية (الهمج المنحدرين من هضبة البامير في وسط آسيا) المستوطنة شمال الدانوب. لذا كان يحاول ادخال بعضهم في وحدة معه، بخاصة هسن وسخسونيا وبادن وبافاريا وكذلك الفرنجة، الذين انقسموا قبل قرون إلى لاتينيون كاثوليك (فرنسا) وآخرون حافظوا على "جرمنتهم" ومذهبهم البروتستانتي، وهم "فرانكشيون" في فرانكفورت الألمانية. لقد لاحظ القيصر أن دول أوروبية صغيرة مثل هولندا وبلجيكا لديها مستعمرات واسعة في آسيا وافريقيا وأمريكا، تجلب منها خيرات وافرة، بينما بلاده العريقة محرومة من ذلك، لهذا رأى في السلطنة العثمانية فرصة جيدة لمستعمرات ثرية وقريبة، فتوافق معهم للمعاونة في الدفاع عنهم، ويقوم الآن بمدهم بقليل من سلاحه المطور. رجل آخر من القرابة قال للجد ان بعض حجاج مصر، ذكروا له وجود اتصال بين سعيد ابن الباشا الكبير (أو عباس بن طوسون) مع الإمام فيصل، الذي ذكر له ان والده غير راضي عن أربعة أمور. أولها تجاوزه حدوده بضم الأحساء إلى ولايته، وثانيها قلة المتحصل من إيرادات أراضيه، ثم خروج بعض المسلحين من عنده ليقطعوا طرق السفر. ورابعها وأهمها هو توفيره ملاذ آمن لثوار عسير، الذين انشقوا عن ولاته ويختبئون في جبالهم الوعرة، وأحيانا يتوجهون نحو غربي نجد حيث المأوى. تساءل أحد آل خثلان عما يدفع المصاروة للطمع في أرضنا القاحلة، وقد حباهم الله بأرض خصبة، يسقيها نيل عذب يأتيهم شاداً الرحال من مجاهل بعيدة، ولديهم ثمرات عديدة لا يكدحون للحصول عليها. رد عليه ابن عمه بالقول ان بلادنا من فضل الله كريمة، ويبارك الله لنا في شقائنا وكفاحنا، فلدينا أفضل تمور الدنيا وأطيب لحوم الضأن وابدع حبوب الحنطة، كما نرسل لهم وغيرهم أحسن الخيل والإبل والحمير، ونغوص في بحرها الشرقي لاستخراج أغلى أصناف اللؤلؤ، وفي جنوبها البن الخولاني واللقمتي، الذي لا تطيب خواطرهم إلا باحتساء قهوته، وأرضنا معبر قوافل التجارة من الصين والهند وفارس والحبشة، لذا يطمع فيها كل خبيث حاقد. عارضه آخر بأن أرضنا كريهة جدباء ماءها مر نَكِدُ فيها ليل نهار، لا يكاد يخرج منها ثمر قليل حتى تلتهمه الآفات الكثيرة. وحتى المصطفى عليه الصلاة والسلام، دعا ربه أن يبارك في شامها ويمنها، ولما تحدثوا معه عن عراقها ونجدها، أشار بسبابته للشرق وقال "هو منبع الشر ومخرج الفتن" وكثر لغطهم عن ذلك والجد علي صامت. فلما استحثوه ليدلي بدلوه في تلك المجادلة، ذكر الله وأثنى عليه وأكد بعدم ثبوت ما يقال عن سب النبي لنجد، ثم بين لهم أنهم يخلطون بين نجد وجزيرة العرب، التي كفاها مكانة أنها مهبط الوحي ومقر الأنبياء، منذ آدم حتى أبا القاسم عليهم جميعاً سلام الله. وأكد محبته والصالحين من عشيرته لنجد، رغم ما قاله البعض عن جفافها وغبارها وشدة حرها، ويكفينا شهادة من جاءوا من خارجها ومدحوها نثرا وشعراً، مثل القائل:

الا يا صبا نجد متى هجت من نجدِ ******* لقد زادني مسراك وجداً على وجدِ

سقــى الله نجـد والمقـيم بأرضـــها ******* سحــاب غواد خــاليات من الرعــدِ

وقول آخر: ـــــ

تنسم من شميم عرار نجد ****** فما بعد العشية من عرارِ

الا يا حبذا نفحـات نجـد ****** وريا روضــه بعد القطارِ

وأهلك اذ يحل الحيا نجداً ******* وأنت على زمانك غير زارِ

فحمد الله على نعمه وتوجه لاستكمال رعاية شؤونه، ومتابعة حاجات أهله وجيرانه.

ذات صباح انشقت الأرض غرب الرياض، وخرج منها مرسول من ينبع يحمل "خط" من ابن عم الإمام، كتبه الأمير خالد بن سعود "ولد الإمام أبو شوارب!" يستأذن للقدوم عليه في الرياض بعد أن غادر منفاه في مصر، وعلى سجيته وطيب معشره سارع الإمام فيصل بالرد على المكتوب برسالة ترحيب، بصحبتها هدايا وثياب وركائب من الخيل النجيبة والإبل العمانية، يدعوه للمسارعة بالقدوم للرياض وسيكون على رأس مستقبليه. لما بلغ ذلك الخبر للجد في نعام، أوجس منه خيفة وتمنى لو تم تمحيص الأمر قبل التسرع، وقال له بعض قرابته أنه يسيء الظن في الرجل، الذي قد يعمل مثل غدرة مشاري بخاله، فرد آخر "إن سوء الظنية من الفطنية" لكن الجد اكتفى بسؤال الله الهداية والعون، وأنعِم به هاديا ومعينا سبحانه. أثناء وجوده في الحلة يوم الجمعة، استفسر الجد من بعض الذين لهم قرابة في الرياض (والدرعية من قبل) عن ذلك الأمير فتضاربت الأقاويل بشأنه، لكن أحد من عمل عمه مع مشائخ الدرعية، أفاد ان ذلك الأمير واحد من أصغر أبناء أبو الشوارب (الإمام سعود بن عبد العزيز) الذين كانوا في سن الفطام عند موته بعد علة لم تمهله طويلا، وإن أمه مستولدة حبشية لذا فهو داكن الجلد. وبعد أن دمر الباشا البلدة غادرها للمنفى في مصر، بصحبة أخيه الإمام عبدالله (المشنوق) وهو لم يكد يبلغ العاشرة، وعاش هناك في كنف أسرته نحو عشرين سنة. وكان غير منتظم الحال فتارة يكون متشددا في الفقه، ملتزما بدقة كافة الفرائض والنوافل، لكن تأتيه حالات من التساهل، في خضم ما تعج به مصر من العجائب، كقول المتنبي "مضحكات كالبكاء؟" والرجل مثل البقية لا يُعلم عن حاله الآن. إلا أنه أضاف للجد بأنه قبل خمس سنوات جاء لنجد رجل كاذب من عنزة، يقال له عقيل وأدعى أنه الأمير خالد بن سعود، لكن لما تمحصوه ظهر كذبه، وكاد الإمام تركي أن يقتله لكنه فر إلى عشيرته، وربما أن رجل ينبع هذا هو الآخر دعي أفاق، يريد قليل من الدراهم بادعاء قربه لآل سعود. كان يسير معهم رجل من الجيران بدا عليه الغضب، فقال لا تصدقوا أقوال هذا الخادم فلم يسبق أن ادعى أحد أنه من الأمراء، وهو يعلم ان ذرية محمد بن سعود يعرفون بعضهم جيدا، ومن الصعب أن يتجرأ شخص على مثل تلك الكذبة. فرد عليه الجد موافقا مع تأكيد أن المنفى لعشرين سنة، قد يؤثر على ملامح الناس بخاصة في بلاد غريبة، فقال أحد الماشين معه أثناء العودة من الجامع، ان الإمام أرسل مع الهدايا رجل عالم بالقيافة، ويصحبه اثنان من الخدم الذين كانوا في المنفى مع آل سعود، ويعرفون أكثر المقيمين منهم في مصر.

لم تطل المدة إلا وجاء خبر يقين من أمير الدلم، ينبئ أهل الحريق وكافة البلدات التابعة له، أن عساكر جاءت من مصر تزمع خلع الإمام وتنصيب غيره، وعلى كافة المجاهدين الإعداد لصدهم، والتجمع في "صياح" غرب الرياض قبل نهاية رمضان، والتوجه بعد العيد لعنيزة لدحر البغاة بعون الله. رأى الجد بعد صلاة العيد أن يتوجه جماعته من آل خثلان ببيرقهم، ويقيموا في صياح ثم يتوجهوا مع الإمام نحو القصيم، وسيكمن هو والبقية في ضرما لحين يصله مرسولهم، فيتحركوا نحو الوشم أسفل عقبة الحيسية، ويلتحقوا بجيش الإمام فيصل. طال بهم المقام هناك حتى شاهد الجد هلال ذوالقعدة الحرام، ورغم ما لقوه من كرم وحفاوة من أهل ضرما "الأجاويد" إلا أنه رأى أن يغادروا البلدة، وأقاموا محطة لهم في الفلاة المجدبة من شح المطر، وكانوا يرسلون الخدم لشراء حاجياتهم من مرات وثرمداء. بعد أيام وصلتهم طلائع غزو الإمام فالتحقوا بهم، وأخروا السلام على ولي الأمر وتجديد العهد معه حتى وصلوا عنيزة، حيث التقوا مع قادتها من سبيع وتوجهوا جميعاً نحوه، حيث شيدوا له مخيم ضخم شمال البلدة. وهناك كان معه المعاون الرئيسي "ابن رشيد" وقد احتفى بهم بفتور، وجل اهتمامه موجه لشعراء الزجل الشعبي الركيك، الذي لا يستسيغه الجد كثيراً لكنه يسمعه. كانت المنظومات تدور افكارها حول الشجاعة والحماسة، مع اشادة بالكرم والسخاء مما يبين القصد منها وهو الاستعطاء البذيء.

بعد أيام أقام سبعان عنيزة مأدبة مختصرة للإمام وقرابته وبطانته، ودعوا اليها حشد من سبعان الحائر والخرج والفُرع (نعام والحريق) وليلى ورماح، حيث كان منشرح الصدر وتحدث مع الحضور في أمور عامة بعيدة عن قلق تلك المحاربة. وبعدها أنشد عليه أحدهم قصيدة المتنبي "صحب الناس قبلنا ذا الزمانا" فأعجب بها، ثم قص عليه آخر بقاء والده تركي في "عليه" عدة شهور قبل خمس عشرة سنة، واستفسر من الجد علي عن الحال آنذاك في الحاير والحوطة، ثم عاد الكلام عن الشعر فأنشد الجد أبيات من قصائد الزمن الجاهلي لزهير وعنترة وابن كلثوم، ومدائح المصطفى لحسان وكعب، بعدها القى أحد السبعان أجزاء من قصائد نجد لجرير ومحاورته مع الفرزدق وحماسية أبو تمام. بدا أن الإمام يستمع بشغف محدود لتلك المنظومات الموزونة، لذا سأل عما إذا كان أحدهم يضبط قصائد ملك الشعراء، الذي لاحظ بغض بعض المصريين له، فبين له الجد أن سبب ذلك هو انتقاصه لهم، لما سب حاكمهم الزنجي كافور، المدعي كذباً أنه اخشيدي وما هو إلا أحد مماليكهم. وضرب له مثال على ذلك قصيدة "عيد بأية حال عدت يا عيد" حيث أسرف في هجائه فقال "من علم الأسود المخصي مكرمة" وأضاف "أذنه في يد النخاس دامية **** وهو بالفلسين مردود" ثم انتقل إلى سب المصريين بقول "نامت نواطير مصر عن ثعالبها" وأضاف "صار الخصي إمام الآبقين بها" وزاد عليهم الذم بقوله إنه كلما اغتال عبد السوء سيده "فله في مصر تمهيد" وأمعن في هجائه إنهم "كذابين ضيفهم عن القرى" وقوله "جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسانِ" وفاضت إساءته ببيت منه "الأسود المثقوب

مشفره تطيعه الرعاديد!" لذلك أبغضه المصريون. واستفسر الأمير عما دفعه لسب أهل مصر وخصومته مع كافور وليست معهم، فأجابه الجد إن لديه قصائد أخرى هجا فيها أميرهم ولم يتعرض للمحكومين، مثل "أريك الرضا إذا أخفت النفس خافيا" يبرر فيها مدحه السابق لكافور ثم انقلابه عليه، حيث قال "أراك ذا نعل إذا كنت حافيا" بسبب خشونة وتقشف قدميه، وزاده بوصفه إنه غادر وخسيس وجبان "أشخصاً لحت لي أم مخازيا" وأقذع في سبه بالقول إنه في مجلسه كأنه عجوز تولول أو قرد يقهقه، وإن "مثلك يؤتى ---- ليضحك البواكيا" وغيره كثير. وختم الجد حديثه بأن الشعراء لا يصدقهم ويتبعهم إلا الغاوون، وكافور كان من رموز الحكمة والتدبير، فقال من يأمن من يدعي النبوة بعد محمد، ألا يدعي الملك مع كافور الاخشيدي. وتبين ذلك فور وفاته حيث سقطت مصر في قبضة الفاطمية (العبيدية) الذين من مخازيهم خروج قرامطتهم على المسلمين في الحرم، وكسر الحجر الأسود ونقله إلى مقرهم في اليمامة ثم القطيف قبل عدة قرون. فأيد الإمام ذلك بقوله يكفينا "حطيئة الزلفي" الذي يستعطي الأثرياء، ومن منعه هجاه ومن منحه أعفاه.

كان زمن الربيع يؤمل فيه غيث يجبر ما أصاب البلاد من جفاف، لكن السحب القادمة من القبلة ومن الشمال الغربي، برقت وارعدت لكن عجاجها أكثر من قطرها. ثم جاء نباء لآل خثلان وأهل الحريق ونعام والحوطة بالبقاء في محلهم، حتى يردهم إشارة من أحد رجال الإمام، الذي توجه نحو الرس لصد عساكر مصر، التي يقودها رجل يقال له إسماعيل بيه، وهو أحد حراس الباشا في قصر شبرا، ثم عرف طريق الترقي حتى غدا من كبار الضباط ثم قائد جند، وفي معيته الأمير خالد بن سعود ابن عم الإمام، الذي كان أبوه ابن عم والد فيصل، فهو ابن عم قريب لكنه ليس "لزم!" ولم يفهموا كيف سولت له نفسه التعاون مع أعداء أبيه وجده ضد قرابته. بقوا في مكانهم أيام يعانون من الظماء والحر وعواصف التراب، وصاموا يوم عرفات ثم نحروا ضحاياهم وأكلوا منها واطعموا القانع والمعتر من السابلة، لكن خواطرهم في ريبة وضيق من ذلك الحال. بعد أيام جاءهم أحد قادة عساكر الإمام، وكان له قرابة مع بعض سكان الحريق، الذين اختبأوا فيها قبل عشرين سنة زمن سقوط الدرعية. وقد أخبرهم الرجل أن الإمام التقى مع إسماعيل وخالد بعد أن غادره ابن رشيد، واللذان نصحاه على الملاء أن يغادر القصيم، ويترك ادارة البلاد لمن هو "قائم مقام الوالي" حيث يزمع الباشا الكبير جعل نجد "ولاية" تابعة له مستقبلا، وحتى ذلك الحين سيكون الأمير خالد هو "القائم مقام" وبعدها سيبحث الباشا عمن هو أصلح لقيادة شئون الولاية. قال لهم الرجل إن عليهم الإعداد للتوجه نحو الرس بعد صلاة الصبح، والانضمام لقوات الإمام ومحاربة البغاة القادمين من مصر، فانزعج بعض آل خثلان من المشاركة في مقتلة بين ذرية الإمام محمد بن سعود، للتنازع على كرسي الحكم بدون وجه حق، فرد عليهم آخرون إن الإمام فيصل هو من انعقدت له بيعة المسلمين، وخالد بن سعود جاء من مصر تحت بيرق الباشا، فهو خارج عن الإمام، مما يستوجب مناصحته للكف عن ذلك

فإذا لم يرعوي فهو من الفئة الباغية، التي ينص القرآن على مقاتلتها حتى تفيء إلى أمر الله، أما الجد فقد لاذ بالصمت يسبح ربه ويدعو "اللهم سلم سلم" وهومتوجه للقبلة. شدوا الرحال فجراً والجد متثاقل من وجع أصابه من هواء الربيع، وفي قلبه غصة من الدخول في حرب بين قرابة على أمور دنيوية، وبعد مسيرة ساعات وقبل أن يصلوا البكيرية، شاهدوا على البعد ركائب قادمة نحوهم. تقدم قائدهم مهرولا نحوهم ليستطلع الأمر، ثم عاد يخبرهم بالانقلاب شرقاً للتوجه نحو بيريدة، ادار الجد خطام فرسه وهو في حيرة من ذلك الاضطراب، لكنه منصاع لمن ولاه الإمام قيادة شؤونهم. عندما لاحت لهم زراعات البلدة، وسمعوا زعيق يهائمها نزلوا عند ضفة الرمة، وبداء البعض يقيمون أشرعة تقيهم حر الشمس، وأعد العمال القهوة وطعام العشي. لما بداء البعض يشدون رحالهم لمرافقة الإمام، الذي لاح ركابه من بعيد قبل المغرب، أمرهم القائد ان يلزموا مكانهم حتى يردهم الخبر. أمضوا ليلتهم في ذلك القفر الموحش والظلام الدامس حيث القمر في المحاق. في الغد جاءهم أحد قحاطين الخرج كان في صحبة ابن قرملة، فأخبرهم ان الأمور مضطربة والآراء متضاربة، وقد شاهد شاب لم يكد يبلغ العشرين مع البيه وخالد، عرف لاحقاً انه "جلوي" من الإخوة الصغار للإمام. وقد خرج من الرس قوم من كبارهم، وجرت مقولات تبين منها انهم لا يرون طائل من محاربة عساكر البيرق الأحمر، وبخاصة مع قلة عدد جنود الإمام، وقد طلبوا منه عدم دخول بلدتهم، التي مازالت تعاني من الدمار الذي انزله بهم إبراهيم باشا قبل عشرين سنة، ثم قدموا له سلاح وذخيرة وركائب ونقود، كما تطوع عشرات منهم بالجهاد معه ضد الغزاة، وأما البقية فقد آثروا عدم الخوض في قتاله مع ابن عمه.

في الصباح كانت ثلة من آل خثلان يتداولون القول في حالهم، واعترض البعض على تصرفات آمر فرقتهم وعد م ادراكه لمقامات الرجال، وانه لا يصلح لمثل هذه القيادة بل يجيد أمور الطبخ والنفخ، فخالفهم آخر وقال ان عليهم السمع والطاعة ولو تأمر عليهم من رأسه كأنها زبيبة، فقال أحد القرابة إن "الفاروق" رضي الله عنه قيد ذلك في مكة بحفظ كتاب الله، الذي يرفع الله به أقوام ويضع آخرين. اما الجد فنصح ان لا يكونوا مثل صحب "داوود"، الذين قالوا عن جالوت أنى يكون له الملك (القيادة) علينا ونحن أحق منه، وزادهم بانه رجل "مأمور" لا يتصرف بدبرته وهواه. بقوا مكانهم في شظف زحال كسيف ليومين، حتى جاءهم رجل من العرينات ودعاهم لمرافقته إلى عنيزة، حيث وصلها الإمام والقوم متجمهرين عنده يتداولون الرأي، لما لم يجدوا قائد كتيبتهم تركوا له خبر مع أحد العمال عن ذهابهم، وبرروا ذلك بأن زهابهم قد نفذ، لكن الرجل رد ان المجاهدين يدبرون مستلزماتهم، فلم يبالوا به وتحركوا شرقاً. هناك وجدوا سبعان كرام أبوا عليهم أن يستاجروا منزل، ودبروا لهم مكان مرتب عند سوق البلدة. في اليوم التالي كان عمالهم يستكملون ترتيب المنزل، وأخذوا يتشاورون حول سبل قعزيز حصون عاصمة (قاعدة) القصيم مع نفر من سبعلنها، حيث تصدع بعضها وقد يكون مع البيه مدافع دك؟ بعد يومين والأمور ساكنة قرر الخثالين زيارة الإمام لتجديد

العهد به، وتلمس ما لديه من علوم وأفكار، لكنهم ردوا عليهم أن الرجل منشغل مع بطانته وكبار مشاوريه، لذا عليهم التريث الذي لم يستطل، فبعد المغرب وردهم نباء أن الإمام فيصل قد أزمع شد الرحال والعودة لأهله في الرياض. شعر كافة الحضور (والجد) بغصة لما يجري من تحركات على غير نسق. أفصح البعض عما يكنون بالقول ان ذلك يشير لوجود اضطراب الخواطر وارتجاج الأحاسيس، فرد آخر بأن العلة في حاشية أو (بطانة لا يألونكم خبالا ويودون ما عنتم) وهم ينشرون التشوش في فكر الإمام، ويعملون لدفعه نحو تصرفات تنفعهم غير مبالين بالضرر عليه. زاد آخر على ذلك بالقول إن بعض الطامحين للسلطة في القصيم والوشم وسدير، يسعون لإثارة فتن وقلاقل بين فيصل بن تركي وخالد بن سعود، ليصلوا إلى غاياتهم للوصول للمناصب العليا والرئاسة. عندما تحدثوا عن قلة خبرة الإمام بفنون القتال والحرب، انبرى لهم أحد بنو عم الجد علي طالباً منهم أن يقولوا الخير أو يصمتوا، حيث أثبت الإمام نباهة وشجاعة في ميدان الوغى، خلال العشر سنوات الماضية أثناء عمله تحت قيادة والده، ثم ثم تصرفاته بعد اغتياله وقضائه السريع على فتنة مشاري وأعوانه، بأقل قدر من سفك الدماء. أيده الجد بأنه قد شاهد جرأته وحماسته أثناء معركة شعيب غبيراء والحريقة، قبل عشرين سنة، وقد كان خير عضيد لوالده أثناء الالتحام هو وأخوه فهد بن تركي الذي استشهد في تلك المعارك.

في اليوم التالي وردهم نباء رحيل الإمام للوشم متجهاً للرياض، فشدوا رحالهم متوجهين نحو المذنب حيث يوجد أناس من أهل الحريق، أمضوا عندهم عدة أيام قبل أن يصعدوا طويق من عقبة الحيسية. ولما انحدروا تجاه الجنوب الشرقي شاهدوا قبل الرياض حشود غفيرة من الأعراب، الذين لم يطمأن الجد لنواياهم، لذا بحث مع رفاقه سبل تلافي التداخل معهم، وتقرر أن ينحرفوا يميناً ثم يتجهوا للحبونية، قرب الضفة الشرقية لوادي حنيفة، حيث نباتات تصلح علوفة لركائبهم التي أصابها الهزال من سوء الطعام وشحه. أجاز الإمام لكافة من أناخوا في محيط الرياض أن ينصرفوا لبلدانهم، وقيل إن بعض رؤسائهم ممن تلكؤ في المغادرة، قد منحوا خطوط فيها تكليف لهم بتولي الحكم فيها، وشعر الجد أن ذلك من حسن تدبير ودهاء الإمام فيصل، حيث لا يؤمن مكرهم أذا جاءت عساكر البيه المصري. بينما ينتظرون الرخصة للعودة للحريق، وصلهم مرسول للتأهب لمرافقة الركب، فاستاذنوا للتريث إلى بعد غد حيث اليوم صائمون تاسوعاء، فوافقوا لهم على ذلك، وفي المساء علموا من قادم من داخل الرياض، أن الإمام اختص بأمره ذاك سبعان وقحاطين الجنوب (اليمامة) من نواحي السيح والفُرع وبرك وليلى واللدام. وانه لما دخل الرياض وجد الحال غير مريح، فقد كان المساعدون والمعاونون وحتى بعض الخدم في شدة، ثم تبين ان أولئك من الذين عملوا (وآبائهم) مع الإمام سعود في الدرعية، كما تحدثت بعض النسوة عن العز والثراء زمن الإمام سعود (الشواربي) وأنهم يتحينون مثل ذلك فور عودة ابنه من المنفى، ليعيد لهم زمن الرخاء! تداول الجد مع الصحب حول حسن ظن القوم، في عودة طيب العيش فور

عودة أحد من ذرية سعود، فقال أحدهم إنه كان يملك عدد كبير من العبيد البيضان والسودان، وينتقي الجيد منهم ويدربهم على أعمال تلائم كل منهم على حدة، ويكرمهم ويوفر لهم كافة أسباب الراحة هم ونسائهم وأطفالهم، لذا كانوا في لهفة لعودة تلك الأيام. قال آخر ان الموالي الأذكياء عادة يتبعون أعمامهم وسادتهم، ويجتهدون في خدمتهم ويخلصون لهم العمل، لذا فهم الان يظنون أن الأمير خالد سيعيد الحال كما كان زمن أبيه، غير مدركين ان الرجل الآن ماهو إلا أداة في يد باشا مصر، ليضمن له السيطرة على نجد. أخبيرهم الجد انه سمع أحد أتباع أبو شوارب (رحمه الله) يقول على الملاء ان الحكم لذرية عبدالعزيز (بن محمد بن سعود) وليس لأخيه عبدالله وذريته نصيب في الحكم، ومما يؤسف له أن البعض يؤمنون بذلك، غير آبهين بأنهم عقدوا في ذمتهم البيعة للإمام فيصل بن تركي وأبيه من قبل.

وصلوا مع الإمام إلى حاير سبيع حيث وجدوا استعداد طيب، من الجانب القتالي ومن نواحي الضيافة وراحة المنزل، وفهموا أن القحاطين قد توجهوا إلى "سلمية" الخرج، وتاحت الفرصة لهم للجلوس مع الإمام في نفر قليل، الذي وجده الجد رابط الجأش صافي الذهن قوي العزيمة. تحدث معه كبار عشائر سبيع عما قاله بعض المدلسين، وادعوا أن قوم من سبيع سارعوا لالتحاق مع القوة المصرية، فور وصولها ينبع والتزموا بمناصرتهم، فرد الإمام أنه يعرف مواقف سبيع المتسمة بالولاء والوفاء بالعهد، وهذا عهدنا بهم منذ قديم الزمن، ولا تؤثر الأقاويل المضللة أو الاعمال الفردية على ثقتنا فيهم، ثم أشاد بحسن خصال سبعان جنوب اليمامة. وتحدث أحد صحب الإمام عن أن العساكر القادمة من مصر، مع إسماعيل بيه لم تكن تزيد عن الألف إلا قليلا، لكن بعض الأعراب في نواحي المدينة المنورة وعالية نجد التحقوا به، حتى يقدر ععدهم الان بما يناهز الخمسة آلاف محارب. وأضاف آخر انه قد نما لعلمه حديث لدى البيه وخالد، حول لجوء الإمام للإختباء في الحاير أو الحلوة مثل أبيه من قبل، فسارع أحد الحراقى بالقول عن (علية) لكن أحد العجمان مع الأمير قال لقد انكشف أمر علية للكثير، فقد كان الإمام تركي يتحدث عنه باستفاضة خلال عشر سنوات ولايته، كما ينشد لمجالسيه قصائد نظمها في ذلك. لكن الجد قاطعهم قائلا إن الاختباء في مغارة جبلية، أو في قرى نائية تليق بشخص تطارده قوى كبرى، ويريد الإفلات منها بحياته ريثما يدبر أمره، أما الإمام فقد انعقدت له بيعة الخاصة والعامة، ولا اعتبار لتصرفات الطامعين من شذاذ الآفاق، فما زال غالبية أهل جزيرة العرب يحفظون له العهد، وسيناصرونه بعون الله ضد من يريدون خلعه. ثم أردف أن القادمين من مصر عددهم قليل ويقودهم شرطي صغير، يتوارى بدعوى أنه يريد إعادة الأمير خالد للحكم، بعد أن قتل سادته أخاه الذي سلم لهم الدرعية، ولم يعد أحد يثق فيهم لتولي أمر المسلمين. وزاد على ذلك بالقوا إن حاكم مصر الآن غارق في مشاكله مع سادته القدامى (بنو طرخان بن عثمان) بحاول تعزيز تواجد ولده إبراهيم في الأناضول، ولن يمكنه ارسال مزيد من المدد إلى إسماعيل وخالد، مثلما كان يصله أثناء حربه في الدرعية من

اسطنبول والشام والعراق. وختم كلامه راجياً الإمام ألا يستمع لأقوال المرجفين، وأن يعود لقاعدة حكمه ويتحصن ضد عدوه، ويستدعي المخلصين للأمة في شمال اليمامة والوشم والقصيم وحائل والحجاز والأحساء ومسقط، وسيجد بحول الله العون من خالقه ثم من المؤمنين بعدالة موقفه، غير الطامعين في منصب أو مال، وسيتمكن من دحر الغزاة قبل أن يصلوا الرياض والنصر من عنده سبحانه. ذكر الجد لحفيده زيد أنه قد تحفز وغص بكلامه، فسارع الإمام رحمه الله بالإشارة نحوه، وأثنى على ما قاله وسأل الله العون والتسديد، وأشار أنهم في الصباح سيتجهون نحو "سلمية" السيح، ويتحدث مع آل عايذ هناك حيث وعده والي الهفوف بارسال آلاف المقاتلين.

تأخر الجد وولده في الحاير ليومين لشأن خاص به، ولما وصل السلمية توجه للسلام على الإمام فوجد عنده حشد من الناس، بينهم بعض بنوعمه وآخرون من ذرية إخوة الإمام محمد (المؤسس) وعدد من أعيان السهول والسبعان والقحاطين والدواسر، مع قوم آخرين من سدير والمحمل والوشم، ونفر قليل من آل شامر العجمان وآل فقيه (ضرمى) ومن تميم الوشم والحوطة، الا انه لم يكن في مجلسه أحد من ذرية عم والده عبد العزيز بن محمد بن سعود. وقد كان يدور لغط حول رسالة تلقاها الإمام من "عياشي ينبع" وهو أحد أبناء الأشراف هناك، الذين لما شاهدوا قوة إمارة الدرعية في القرن الماضي، قرروا مسايرة الحال وتأييدها، بل والخضوع لها، بخاصة لما تمكن المجاهدون زمن الإمام عبدالعزيز من السيطرة على الحرمين، وزاد الانقياد لها بعد تولي الإمام سعود السلطة، بشخصيته القوية وحزمه وحسن يدبيره. والعياشية من قرابة شريف مكة لكنهم يظهرون الاستقلال في منطقتهم، وينضوي تحت لوائهم بعض قبائل الحجاز من جهينة وحرب وغيرهم، وقد ساند العياشي قوات الإمام سعود بقيادة ولده عبدالله (الإمام المشنوق لاحقا) لما وصلت قوات الدولة العثمانية بقيادة طوسون (ابن والي مصر محمد علي باشا) بل كان جبارة العياشي أحد ابرز قادة مقاومة الغزاة الترك في عدة مواقع، سواء في ينبع النخل أو قرب بدر والصفراء، مما أدى لانهاك قوات طوسون القادمة لاستعادة السيطرة على الحجاز. كان حديثهم جدال بشأن الثقة في ما أرسله العياشي للإمام، ويدور حول اقتراحه للتوسط بينه وابن عمه (خالد) وحقن دماء آل مقرن وتسوية الخلاف ودياً، وكانت الغالبية ترى أن ذلك الشريف ليس محايداً بين الطرفين، حيث يبدو لديه حنين للعلاقة مع الإمام سعود وولده، وبعد ظهور ولده الأصغر ربما تحدثه نفسه بعودة الزمن السالف، لكن آخرون يرون ان الأمير خالد لا يمسك زمام الأمور، بل هو تابع للبيه المصري وعساكره، إلا ان غيرهم يرون أن وضع الإمام حاليا ضعيف بعد تقهقره من القصيم ثم الرياض، وكل ما يؤدي إلى هدنة مؤقته سيكون في صالحه، ريثما يستجمع قواه ويعيد تنظيم جنوده، أما الجد فكان يرى ان الواجب حاليا العودة للرياض، لإعادة ترتيب الحال والدفاع عن عاصمة امارته. لكنه لم يشاء الاسهاب فقد تحدث عن ذلك قبل أيام في الحاير، كما لاحظ أن الإمام متوتر الحال وزائغ الذهن شارد الفكر، يشير بيديه ويومئ برأسه علامة الموافقة، بدون

ادراك تام لما يدور حوله في تلك الساعة العصيبة. ثم قطع الصمت رجل من قرابة العايذي قال للإمام وهو يحاوره، أنه قد يكون من الأنسب التوجه الآن للأحساء، حيث توجد قوات مسلحة غفيرة موالية له، وسيكون هناك بمنأى عن زخم قوة إسماعيل بيه، وبعيداً عن قاعدته في المدينة المنورة، ويتم تدبير العودة لاحقاً بغزوة مضادة تطيح بالغرباء وأعوانهم من الأعراب، الذين لا يهمهم سوى السلب والتكسب من النزاع.

في اليوم التالي أمرهم أحد رجال الإمام بالتسلل خفية نحو الأحساء، لذا رتب الجد مع رفاقه مغادرة سلمية السيح بعد العصر متجهين للدلم، وبعد المغرب انقلبوا شرقاً نحو السهباء وساروا ليومين بشكل حثيث. ثم التقوا قبل حرض مع رجال من صحب الإمام، الذين قالوا لهم أن بعض العايذية (اصهار العفيصان) قد أوصوه بعدم اشهار ذهابه للهفوف، وأنه في رهط قليل متوجه إلى هناك على عجل، وسيقيم خفية في مكان أعد له قرب الكوت. ولما وصل الجد وجماعته إلى هناك، طلب منهم أحد القحاطين التريث خارج السور، فأناخوا هناك لبضعة أيام حتى جاءهم مندوب العفيصان، فتوجه معهم إلى مقر مؤقت للإقامة داخل بستان به نخيل وعنب ورمان، لكن الثمار لم تنضج بعد فيما عدا شيء من الخضروات، ورغم أن الزمن مازال في برج الثور إلا أن الجو حار ورطب. مما جعل الهواء غير صحي فأصيب الجد بضيق التنفس، تطور بعدها لسخونة وحمى لازم بعدها فراشه لعدة أيام، وكان أثناءها إذا غفت عيناه تصيبه هلوسات مخيفة، يتعلق بعضها بأهله وأملاكه وبلدته وجيرانه، لكنها في معظم الحالات تتعلق بأوهام وتخيلات عن وقوع أحداث مرعبة لبلاده، في ظل قلقه على الحال بعد مغادرة إمام البلاد وقائدها لعاصمة ملسسكه. لما عاده الطبيب المداوي أعطاه مشروب من نقيع ذو طعم كريه، لكنه تحمله داعياً الله أن ينفعه به ولا يكله عليه، فإن الشافي هو الله وحده لكن يلزم أخذ الأسباب. بعد أيام تحسنت حالته قليلا وانتعشت قواه، وقال المداوي إن الهواء عنهم غير صحي زمن "كنة الثريا" حيث رطوبة البحر الغير بعيد شرقاً، مع طلع وغبار يصدر من النباتات يسبب اضطرابات صحية. مرت الليالي متثاقلة وهو يشرب الدواء ويستنشق ما أوصى به الحكيم، حتى أزال الله البأس واسترد بفضله عافيته. لما زاره الصحب بينوا له خلاصة لقائهم مع العفيصان حاكم الأحساء، الذي لديه مجلس عام مرة كل جمعة، وان الجميع يرفضون أي حديث عن مكان الإمام فيصل ومرافقيه، لكنهم لاحظوا الحشد الكثيف من الجنود، المدججين بالسلاح الحديث الذي يردهم من مسقط، عن طريق البريمي التي ما زالت تحت ولاية أحد قادة الإمام. شعر الجد بالطمأنينة وتأمل أن يكون هناك تدبير للعودة إلى نجد، والسيطرة على الرياض وضواحيها، التي مازال غالبية سكانها يدينون بالولاء لفيصل، رغم قلق البعض من العساكر الغرباء، القادمين لعزل الإمام وتنصيب ابن عمه خالد بدلا منه.

بعد أيام حضر مجلس الحاكم فوجده مكتظ بنوعيات مختلفة من الرواد، إلا ان الجميع في وقار وسمت وانضباط، والعفيصان يناجي بعض من بجواره، وبين آونة وأخرى يحدث كل من في المجلس بصوت عال، يحث فيه الجميع على التزام الحرص والسكون

خلال تلك الحقبة الحرجة، ولم يحس الجد بأي طائل من وجوده في المجلس، ولما دعي الحضور للطعام توجه مع ولده لمغادرة المكان، حيث ربما يجدون ما هو أطيب فيما أعده عمالهم بالمنزل. لكنه عند المخرج وجد أحد أفراد أسرة بالغنيم، الذي أسر اليه بنبآء نزل عليه كالصاعقة، فقال إن الاخبار قد وردت من العارض، بوصول إسماعيل بيه يرافقه الأمير خالد بن سعود للرياض، وقد استقروا في قصر الحكم وتوافدت عليهم جماعات من المهنئين والمؤيدين، ومعهما مال وافر يعطون منه كل حسب حاله. فزادت عليه بقايا آلام العلة التي لم يبرأ منها بعد، وأخذ يتفكر في وضعه منذ خرج من عند أهله قبل شهور، ولم يرى الإمام منذ كانوا في الحائر، والسكنى في الأحساء غير مريحة له، وأخذ يستقصي الأنباء عن موضع الإمام حتى يبحث معه الأمر، فلم يجد الجواب الواضح. قال البعض إنه في المبرز وآخرون ذكروا أنه في مضارب آل شامر غرب يبرين، وادعى قائل انه لدى الهواجر قرب سلوى، وذكر أناس أنه في الجنوب قرب عين البريمي، وجال في خاطره أنه يتجول في تلك النواحي يتلمس آراء قادة القوم. مكانهم بعيد عن نجد، ويظن أن من الصعب على عساكر مصر التمدد شرقاً لقلة عددهم، وبعدهم عن قاعدتهم في ينبع والحناكية، ومع ذلك يساوره القلق من جدوى البقاء عند نخيل البحر الشرقي. بعد فترة جاء رجل من قاطني الأحساء ذو أصول من وسط جزيرة العرب، ودعاهم للتنزه في سفينة صغيرة له، بعيدا عن نسائم الواحة في زمن "الكنة" حيث تكثر الآفات والعلل، ولم يكن حريصا على ذلك لكن بعض القرابة حثوه فلم يشاء مخالفتهم. وجدوا العقير مرفأ صغير، تأتيه بضاعة من "محرق" دلمون (البحرين حاليا) ومن رأس البر، لكنها لا تصلح إلا لاستخدام السكان العرب، وليست للخروج بها صوب الحجاز والشام، ومع هذا فقد لاحظ في بعضها فرصة طيبة لتحقيق الكسب. لذا اشتراها وأرسل أحد أولاده مع العمال بها نحو صحنة الخرج، حيث أحد التجار المتعاملين في تلك الأصناف، وأمره أن يقبض منه نصف ثمن ما يأخذه، ويرسل البقية للحريق للبيع هناك، ويعود بالدراهم على عجل ليسدد ما تبقى عليه لتجار العقير. يوجد هناك قوم يغوصون لصيد محار اللؤلؤ، لكن البحر هناك يبدو غير مواتي كما هو في منامة "أوال" وقد أخذهم مضيفهم في رحلة إلى عرض البحر الساكن الموج. كان معهم بعض الصيادين الذين تمكنوا من شبك بعض حيتان "الجرجور" الصغيرة، ذات اللحم المتوسط الطراوة لكنه مقبول الطعم، وعادوا بكمية منه للسيف ليبيعوه لجمهرة من رقيقي الحال. كان في العقير نفر من أهل الأفلاج والحوطة والحريق والدلم، يعمل بعضهم في التجارة وآخرون في الغوص والصيد، وليس كلهم من المقيمين فيها بل منهم من يحضرون أثناء المواسم ثم يعودون لليمامة. الناس هناك في غاية السخاء والخلق الرفيع، وأكرموهم إلى أقصى حد وجهزوا لهم إقامة مريحة، لكن أنى لعلي بن حمد أن يتسلى عما يجول في خاطره من أفكار، كان القلق يساوره من حال البلاد وأمنها، وأخذ البعض يتحدثون عن بداية حقبة جديدة تعود فيها ذرية "أبو الشوارب" للحكم بدون داع لعساكر الغرباء، حتى وان كانوا تحت وصاية الباشا الكبير في مصر. وتسكن الفتن ويتوجه الناس لطاعة ربهم، والانشغال بأعمال أهلهم وتجارتهم وزراعتهم

ودوابهم، مع تلافي الصراع المتأجج على مقعد السلطة منذ عشرين عاما، لكن الجد لم يوافقهم الرأي حيث الباشا لا يحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أساس معيشة كل مسلم يخاف خالقه.

جاء أحد الخدم يبشر الجد بعودة ولده عبدالله من الصحنة، وفي المساء جلس معهم يقص عليهم ما لديه من علوم، رغم كثرتها فكان أهمها ثلاثة، بداء بالحسن منها وأجل السيء للنهاية. قال إن سوق الخرج رائجة، ورغم عدم جودة سلعه إلا أنه تمكن من بيعها بسعر مجزي، ولو أخذ بضاعته للدلم لوجد ثمن أفضل لكنه التزم بوصية والده بتسليمها لابن عشبان، وبين أن المجلوب للمنطقة شحيح بسبب الخوف، كما توجد في أيدي الناس فضة وافرة من عطايا إسماعيل وخالد. وقد أرسل قليل مما تبقى للحريق مع أحد العمال، وكذلك بعض النقود لعمه خشية مخاطر الطريق، ومعه الآن ما يسد الدين لتاجر العقير ويفيض فدفعه لأبيه. وأما الأمر الثاني فقد علم عن توافد لفيف من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب للحوطة، حيث استضافهم الشيخ الوهيبي (الفقيه القاضي من وهبة بني تميم) فقد خافوا على أنفسهم وأهلهم لما اقتربت عساكر البيه من الرياض. لذا توجهوا جنوباً بدعوة من الوهيبي، ذو العلاقة الوطيدة معهم منذ عشرات السنين، وتربطهم به وشائج المصاهرة والرحم، كما ان لهم تعارف جيد مع الكثير من بني تميم سكان الحوطة. والأمر الثالث هو حدوث اضطراب في الحريق، بعد أن أدركت أعراض الشيخوخة الأمير تركي الهزاني، فقد دب فيه الوهن لما بلغ الثمانين، مما دفع بعض أهله للتجرؤ على تصرفات منبوذة، من المشاكسة مع بعضهم والتعدي على قرابتهم وجيرانهم وعابري السبيل، مما كان الأمير تركي لا يجيزه ولا يقبله من جماعته، فأثار ذلك مخاوف البعض من عودة الفتن وسفك الدماء، كما حدث مرات عديدة خلال المائتي سنة الماضية. وخلافاً لرأي الأمير تركي قرر بعض قرابته أن يتوجهوا للرياض لمبايعة الأمير خالد، لكنهم أعرضوا عن ذلك لما نهاهم تركي، الذي رغم مرضه إلا ان لديه بقية من سطوة ونفوذ يخشاها المرجفون. ابدى الحد دهشته من مسألة مبايعة خالد، فهو لم يدعي أنه ولي أمر البلاد، بل عامل يضبط الأمور ولا يتصرف إلا بما يرد اليه من الباشا الذي أوكل اليه قيادة نجد وتحت اشراف قائد الجند إسماعيل، لذا فإن الولاة والعمال لا بيعة لهم، بل وجوب قبول ما يأمرون به حتى يرد عزلهم ممن نصبهم في الرئاسة.

لاحظ الجد أن مع ولده شاب وسيم لم يبلغ العشرين، شديد بياض البشرة ذو أنف دقيق وشفاه رقيقة وعيناه فيها زرقة، أما شعره فمجعد خشن ويداه غليظتان في هيئة زنجية، كان الجد على ثقة أنه سبق أن رآه مع العمال، لكن ذاكرته دخلها الوهن ولم تسعفه ليعلم عن سبب وجوده معهم. لكن الفتى لاحظ حملقة الجد فيه وكان كثير الحركة، فسارع بمخاطبة الجد والحضور بثقة وأناة، فقال إن لديه خبر رابع مهم يسرده عليهم إذا اذنوا له، فأشار له أحد آل خثلان الذي يبدو أن له علاقة به. قال الفتى إنه كان في الحائر قبل أيام، يتابع المعاميل عند عمانه السهول، حيث لديهم وليمة كبرى دعي إليها وجهاء من

سبيع وقحطان وخوالد وغيرهم، ثم دخل عليهم حشد مسلح علم أن على رأسهم إسماعيل الأغا والأمير خالد بن سعود. بعد العشاء وأثناء قهوة المغرب في المختصر، سمعهم يحادثون كبار رؤساء الحائر، بأنهم جاءوا للبحث عن فيصل بن تركي، لإرساله آمناً مكرم لباشا مصر الكبير (محمد علي الألباني) وقد نما لعلمهم أنه مختبئ في بلدتهم، فأقسموا له بالطلاق والعتاق أنه ليس عندهم ولا يعرفون أين هو منذ غادرهم للسلمية الشهر الماضي. استمر الجدال حول ذلك وانتهى باتفاقهم على ترك مجموعة صغيرة من الأعراب والمصريين في الحائر، لتلمس الحال لديهم والتأكد من عدم لجوء الخوارج عندهم، وشرطوا عليهم تأمين مستلزمات المعيشة لتلك الطائفة، وضمان سلامتهم من أي اعتداء، وان يكون رهن اشارتهم ألف فرانسة يدفعونها لمن يبلغهم أنباء عن ذلك. قبل الانصراف جاء رجل يستأذن دخول هزاني من الحريق، فأمروه بإبقائه في الخارج ريثما يلتقوه خارج المختصر، حيث توجه نحو الأمير يقبله ويبايعه على السمع والطاعة، وكان معه اثنان من جماعته في الحريق وثالث من قرابتهم في سدير، كلهم بايعوا وأشادوا بالأمير خالد وأخوه الإمام عبدالله وأبوهما الإمام سعود، قائلين أنهم كانوا من المدافعين عنهم ضد المعتدين، ثم ذكروا أنهم من قرابة آل مقرن وان الحكم لذرية عبدالعزيز بن محمد، وليس لأخيه عبدالله شيء من ذلك قط. بدا أن إسماعيل بيه غير مرتاح لذلك الحديث، فتساءل بجفاء وخشونة عن القصد من قدومهم، فاندفع نحوه الأربعة معتذرين ويعرفون بأنفسهم، وقالوا نحن شيوخ نعام والحريق والديار المجاورة، وقد ورثناها عن أجدادنا أقارب آل سعود. ولما لاحظوا البيه يحدق فيهم ويكلمهم بلهجة مصرية مع كلمات تركية، سارع كبيرهم للقسم أنهم كانوا في نعجان لغرض ما، ولما علموا بوجودهم جاءوا بثيابهم العادية غير مرتبين، وان غرضهم تقديم الولاء للأمير، وطلب خالع تركي الهزاني من الإمارة، حيث أمضى فيها خمسين سنة وقد هرِم ولم يعد يحسن الدبرة، وأن يعينوا أحد منهم بدلا عنه. لما بدا ان الأمير خالد سيتحدث أشار البيه بسبابته نحوه فسكت، ثم قال لهم إنهم يودون القدوم إلى علية حيث يوجد فيصل، فسارع الرجل بتأكيد عدم وجوده هناك، وان رعاتهم يتجولون في المنطقة ولم يشاهدوا غرباء. فرد عليه البيه أن بعض ذرية الخارجي (ابن عبدالوهاب) كانوا في الحريق الشهر الماضي، فسارع الهزاني بالرد ان الوهابية عند الوهيبي التميمي في الحوطة، وقد دعاهم بعض الناس في الحريق لوليمة بسيطة، وأكد أنهم لم يقدموا لهم سوى ذبيحتين! فقال الأمير خالد ان ذلك كثير. لكن البيه عاد للإشارة بإصبعه فسكت الجميع، وأمرهم أن يصحبوا معهم عشرة رجال من المصريين والأعراب حتى يفتشوا نواحي الحريق، ويضمنوا عودتهم له سالمين في الرياض، فتلعثم الرجل قائلا إن ليس لديه سلطة لضمان ذلك ما دام لم يعين رئيساً، فرد البيه إنه مادام كذلك فسيحضر بنفسه مع قوات كافية، وان من سيساهم في العثور على فيصل بن تركي سيحظى بكرم الأمير خالد "قائم مقام" نجد.

لم يكمل الشاب حديثه فقد قاطعه الجد، وأمره بالكف عن هذه "الخثرقة" التي لا شأن له بها، ثم سأله عن اسمه فقال إنه سلطان التركي "أخو دمنة" عند ذاك تذكره الجد، وقال هل أنت من أبناء "عمشاء السهلية" فرد بالإيجاب فأمره أن ينطلق لتجهيز القهوة لهم. ذكر للقوم ان الفتى ابن امرأة طيبة أبوها أحد موالي "سهول شقراء" لما مات زوجها ترك معها أطفال صغار، وأخذت تعمل بهمة وشرف في الطبخ والخدمة، وكان مع إبراهيم باشا في حصاره للبلدة ضابط عثماني ذو خلق يتعفف عن الفواحش، وطلب من بعضهم الزواج فعرضوها عليه فقبل. وأثناء حصار ضرما أصيب الرجل، ثم عند احتضاره أوصى بكافة ماله لزوجته الحبلى، وأنها إذا ولدت ذكراً يسمى سلطان وإذا بنت فتكون سلطانة. ثم خطبها بعد العدة رجل يقال له الوشمي، اشترطت عليه أن يتكفل بذريتها من زوجيها العربي والتركي. قال أحد الحاضرين فهذا الغلام من "ضراب الترك؟" لكن آخر أجابه بأنه ليس كذلك، فأولئك ليسوا مثله وإنما هم نتيجة عدوان البغاة على نساء عربيات، فاذا كانت عزباء فيضم الجنين (ذكر أو انثى) لأبيها ويقال عند الناس أنه أخوها الأصغر، أما اذا كانت ذات بعل فقد يرضى بضمه مع بقية إخوته من أمه، أو خلاف ذلك شأن آخر. لما أخبروا الجد علي ان ذلك الفتى رافقهم لأنه يريد الذهاب عند خاله في العقير، سارع بترتيب ثقات ليرافقوه إلى هناك، على أن يعودوا ومعهم خط من خاله يطمئن والدته على وصوله عنده، حيث لم يكن مرتاح لتواجده عندهم لولعه بنقل حكايات غير صائبة.

مرت عليهم الأيام متثاقلة والجد يتفكر في جدوى جلوسهم في الأحساء، بعيداً عن الديار والأهل وبلا نضال ضد المعتدين الغرباء، وفي ظهيرة أحد الأيام جاء رجل من عند العفيصان، يستدعي جماعة من أهل الحريق من بينهم الجد، ولما مثلوا في مجلسه أمر أحد مرافقيه أن يصحبهم إلى مكان خارج الهفوف. هناك التقوا مع الإمام فيصل بن تركي، الذي لم يشاهدوه منذ كانوا في السيح، ولما رحب بهم باشر على الفور الإشادة بجهود كافة أهل اليمامة، وأخبرهم أن الأمير خالد بن سعود وقائد العساكر المصرية غادروا الرياض متجهين للحريق. وقد جهز لهم السلاح والذخيرة ليتوجهوا لبلدتهم ويحضوا البقية للمشاركة في الدفاع عن ديرتهم ضد الغزاة، وسيقوم العفيصان بإرسال مدد من الرجال والعتاد لمساندة جهودهم الحربية، وقد تساءل أحد الحضور عن إمكانية تسريع جهازهم حتى يذهبوا سوياً، لكن أحد قرابة الإمام رد عليه ان إمكانيات العدو ضعيفة وعددهم قليل، والأعراب الذين مع إسماعيل بيه ليسوا متحمسين للتوغل في جنوب اليمامة، وعليهم المثابرة بسرعة الرحيل لتجهيز متطلبات الدفاع. أشار الجد بأنهم في عجلة من أمرهم لترتيب النضال ضد البغاة، وسيكونون قد غادروا الأحساء قبل عصر الغد. ولما خرجوا من عند الإمام لامه البعض للتسرع في الموافقة على الرحيل قبل أن يصاحبهم المجاهدون مع الإمام، لكنه رد عليهم بأن الغالبية كانوا تواقين للعودة للديار على كل حال، سواء بصحبة جنود العفيصان أو حتى بدونهم، وعليهم الاستعانة بالله ثم بما يستطيعون بأنفسهم. في اليوم التالي دخلوا في جدال حول

أنسب السبل التي يسلكوها لتفادي ملاقاة العدو في العراء. واقترح أحد الرفاق ارسال كشافة (سبور) نحو الحاير لاستطلاع الأمر من السبعان، بينما يتوجه البقية مسرعين من جنوب العرمة (التوضحية) نحو المنيصف في غرب الخرج، حيث قدروا أن العدو قد يذهب نحو تلال طويق شمال الحريق.

تمكنوا من الوصول بدون أن يلاقيهم أحد من العدو، ولما نزلوا بلدتهم وجدوا اضطراب وخلاف في الرأي، وكل يدلي بدلوه مقدماً اقتراحات وآراء غير مستندة على معرفة بالحال. بينما آل خثلان مجتمعون في دار أحد كبراءهم، تتعالى أصوات ضعيفو الادراك، ويحموا الجدال حول ما يجب عمله لصد المعتدين، دخل عليهم أحد العمال قائلا إن بعض أسر الحريق على خلاف في الرأي أيضا، لكن الشيطان يزين للبعض ان تلك فرصة سانحة للانقضاض على مقاعد السلطة أو كسب المال. في جلسة مختصرة قرر الخثالين ان انجع وسيلة لصد المعتدين، هو تدعيم سور البلدة لعرقلة دخولهم بين المنازل، مما يستدعى التعاون بين الأهالي ليقوم كل بما يمكنه في ناحيته. اقترح البعض حفر خندق في الجهة الشمالية، لذا توجه وفد منهم لجيرانهم هناك، بينما توجهت مجموعة أخرى لجيرانهم على ضفة الوادي، للتعاون في انشاء سور ترابي (عقم) يساعد الرماة في اقتناص الغزاة، لو جاء بعضهم عبر مجرى السيل الجاف من الحاير ثم نساح. بينما الجد جالس مع جماعته اذ عاد اليهم المرسلون بأنباء غير سارة، حيث ان القوم منقسمون لعدة فئات، بعضهم مخلص متحمس لمقاتلة العدو القادم بالشر، وآخرون يتربصون الدوائر ببلدتهم بقصد احداث فتنة يتكسبون من ورائها مال أو منصب، أما الأكثرية فهم متخاذلون يرون ان تلك معركة "آل مقرن" مع بعضهم البعض، وليس لهم طائل من الدخول بينهم في نزاع على السلطة، وقالوا أن احدهم صرح "مقرني يطارد مقرني" فما شأننا بهم؟ لكن العقلاء حثوا الجميع على وجوب الجهاد ودفع الغزاة.

جاءهم لاحقا أحد المرسلين للحائر بأنباء عديدة، أولها أن في الحريق والحوطة قلة من الخونة الذين يرسلون الأخبار لإسماعيل بيه، ظانين ان ذلك سيجعل لهم يد عنده فينصبهم على مقاعد الرئاسة الزائفة. كما أن خلاف قد ظهر بين البيه والأمير خالد حول أسلوب التحرك جنوبا، بعد أن ثبت لديهما أن الإمام فيصل يتواجد في الحلوة، رغم أن بعض من معهم أكدوا خلاف ذلك وأن الجواسيس ظنوا أن الشيخ عبد الرحمن بن حسن هو الإمام، حيث اشتبه عليهم اللباس ولم يراعوا فارق السن الواضح. وأبين للأحبة أنه في ذاك الحين لم يكن هناك كميرات تصوير فوتوغرافي، بل كان على البشرية جمعاء أن تنتظر نصف قرن، حتى تمكن "كوداك" من تطوير كميرا يمكن حملها، فقبلها كان أقصى ما وصلت اليه العلوم هو ما قام به "داجيرو" من انشاء غرفة واسعة مظلمة، لا يدخلها ضوء الشمس إلا من ثقب مثل "سم الخياط" عليه عدستان زجاجيتان ينفذ منهما ضوء منعكس من الجالس خارج الغرفة، وعلى الحائط المقابل لوحة كبيرة من ورق مغموس في محلول من مساحيق الفضة والنطرون والبطاس،

على أن يبقى الشخص ثابتاً لدقائق حتى لا تهتز الصورة، ثم يقوم الكيماويون باستخدام مواد حمضية سرية "لإظهار" الصورة وفي اليوم التالي تستخدم محاليل أخرى "لتثبيتها" وبعدها تظهر صورة باهتة قد لا تدوم طويلا. ولكم يا أحبتي أن تقارنوا هذا مع ما تحملونه في جيوبكم من هواتف جوالة، لا تقوم فقط بالاتصال الصوتي بل تنشئ صور متحركة (فيديو) مع الأصوات، يمكن بثها في لحظات إلى أرجاء الدنيا بسرعة البرق، ويمكن بها متابعة الأشخاص ومعرفة اشباههم للأغراض الأمنية أو الاجتماعية، فسبحان من علم الانسان ما لم يعلم. ونعود الآن لمطلع النصف الثاني من القرن الثالث عشر (هـ) حيث كان البعض يخلط بين الإمام فيصل والشيخ عبد الرحمن، لذا قرر البيه المسير فوراً نحو الحوطة للقبض عليه، ووفد للحريق رجال منهم يستنهضون المجاهدين للتوجه نحو "القوع" للمشاركة في صد المعتدين. إلا أنه في نفس اليوم وصل من الحائر نباء من السبعان بأن خلاف نشب بين إسماعيل وخالد، بشأن تغيير موقع الغارة من الحريق للحوطة (الحلوة) مما أدى إلى أن توجه الأمير جنوباً، يصحبه مائة من عساكر مصر بقيادة ضابط يقال له ابراهيم درويش، ومعهم نحو ثلاثمائة من أعراب قبائل شتى من وسط وغرب نجد، بينما أناخ البيه ومعه العدد الأكبر من المقاتلين شمال غرب الدلم.

لما شارف الأمير خالد بن سعود (ولد الإمام أبوشوارب وأخ الإمام المشنوق) على الوصول للحوطة، اقترح عليه الضابط المصري أن يقيموا معسكرهم على تل صغير شمال شرق شعيب الحوطة، فأناخوا ركائبهم ونصبوا الخيمة الزرقاء (الموشاة) للأمير، الذي أولع بالراحة والدعة لما ترعرع في مصر عشرين سنة! كان الجد في صحبة نفر من آل خثلان وبعض جيرانهم من أهل الحريق، من أوائل الواصلين هناك بعد أهل الحوطة وقراها العديدة، حيث شاهد الجنود يجرون ثلاثة مدافع صغيرة، نحو حافة التل الذي يشرف على المزارع الشرقية للبلدة، لذا أرسلوا مندوب لإشعار من فيها لسرعة المغادرة غرباً، حيث تلك المدافع ضعيفة الرماية، ولا يصل مداها لأكثر من ثلاثمائة خطوة، بينما كان بعض مساعدي الضابط المصري يتطلعون غرباً، نحو التل على الجانب المقابل من الوادي. في المساء جلس المجاهدون يتداولون حول أفضل سبل الهجوم على أولئك الغزاة، واتفق الرأي على أن الأنسب دفعهم نحو السهل الشرقي، بعيداً عن حافة التل وبطن الوادي أو التلال الغربية، ثم يقوم الخيالة بمنازلتهم والفتك بهم، لكن الرأي اختلف حول جدوى مباغتتهم من الشمال أو الجنوب؟ أما الراشدون فقد نصحوا بعدم المسارعة بالهجوم، حيث هم في أرضهم ولم يباشر العدو أي التحام معهم، كما ردوا على اقتراح الهجوم على خيمة الأمير والاجهاز عليه، ثم العمل على ضعضعة عساكر الدرويش وارغامهم على الانسحاب. قال الجد ان الله لم يحوجنا لنخوض في دماء ذرية محمد ابن سعود، وربما يرد أمر من إسماعيل بالتقهقر إذا تأكد ان الإمام فيصل ليس في الحوطة، لذا علينا التريث وعدم التسرع بإطلاق النار، فقد يكفي "الله المؤمنين القتال" بفضله. كان الجد ورفاقه يمضون أول ساعات

النهار يراقبون تحركات المصريين، بواسطة المنظار المقرب (دربيل) وتوصلوا إلى ما يفيد بانكشاف الساحة الجنوبية، لذا لن يمكن مهاجمتهم منها بل الأفضل أن يكون ذلك من الشمال والشرق. اتضح ان عساكر مصر في عوز شديد للمياه، وتعاني ركائبهم الجوع لنقص الكلاء والعلف، ففي تلهم المرتفع عن البساتين لا توجد آبار، ولا يردهم إلا قليل يتسلل به الخونة في ظلام الليل، وكانت شمس برج الأسد قرب "برك" لاهبة على أهل المنطقة، فما بالك بمن جاءوا من ضفاف "بحر النيل" الواسع العذب. المكان الذي فيه مستقر الأمير يسمى "السلامية" وهو مشتق من الحصى الصغار في ارضها، حيث لا يتجاوز حجمها سلامية الإصبع، وهي غير "سلمية" الخرج قرب مركز فرزان، والمشتق اسمها من شجر "السلم" المشابه للطلح. وقد بين لي والدي رحمه الله المكان على الطبيعة، كما بينه له عمه زيد بعد سبعين سنة من تلك الأحداث، وقد كنت وإياه هناك غرب الطريق المتجه من الرياض نحو نجران والذي أقيم زمن الملك سعود واستكمله لاحقاً الملك فيصل، وكانت آنذاك أرض جرداء أعلى "باطن الوادي" وقد أقيم لاحقاً مشفى كبير قرب تلك البقعة، أما مكمن الجد وصحبه فهو أعلى تبة صغيرة شمالها، أقيم فيها لاحقاً مبنى للكهرباء.

وصلت للحوطة نجدات من المحمدي ونعجان والحاير وليلى، جميعهم رجال مسلحون مع ركائب نشيطة، إلا انه تنقصهم الذخيرة فيما إذا جرى التحام طويل الأمد مع الغزاة. الذين كان قائدهم المصري على اتصال مستمر مع إسماعيل بيه على بعد عدة ساعات، حيث تغدو وتروح مجموعات منهم بين المكانين، وفي اليوم التالي وصلت تعزيزات مصرية كثيفة من الرجال والطعام والعتاد والدواب. لاحظ الجميع أن الدرويش قد أكثر من الحركة يرافقه معاونوه، ساعة يتجه نحو حافة التل ثم يعود بعدها لخيمة الأمير خالد أو يدور في المكان، وحاول الجد استنباط الغرض من ذلك، لكن أحد العمال معهم نصحه بعدم الاكتراث به، وكان قد أمضى في مصر عدة سنوات أسيراً مع بعض مشايخ الدرعية، زمن احتلال إبراهيم باشا لها، فقال له هذا رجل "درويش على اسمه" فضحك جمع من الحضور، حيث مسمى درويش في نجد يرمز لسذاجة بعض حجاج الهند المشاة، بينما في مصر ومراكش يلقب به كبار الفقهاء عند المتصوفة. ثم أضاف العامل بالقول ان ذلك الضابط جاء من خلف الجاموسة التي تعمل في الغيط، وأن السلطان محمود قد فرض على الولايات تجنيد اجباري (الجهادية) ومن لا يحسنون فنون الحرب يحالون للعمل (سخرة) في شق القنوات المائية أو استصلاح الأرض البور، ويظن أن ضابطهم ذاك ومساعدوه من تلك الفئة، رماه حظه التعيس في هذه الفيافي وهو مكره، لا يستسيغ القتال في غير دياره ومع غير أهله.

جاء عند الجد في الظهيرة أحد افراد الجماعة، ينبئه بأن الأمير تركي الهزاني قد وصل مع بعض جماعته إلى شمال الحوطة وأناخوا في الباطن، وكانوا قد تركوه في الحريق قبل أيام يعاني من أوجاع الشيخوخة بعد أن تجاوز الثمانين. شعر الجد بالقلق على سلامته وبينهما صحبة وتقدير لنحو أربعين سنة، لذا سارع بالتوجه إلى مخيمه حيث

تلاقيا وتحادثا مطولاً بكل مودة واعزاز، واستعادا ذكريات سنيهم الماضية وأوقات سعيدة امضياها في بساتين بعضهم البعض، أو أماكن عملهم في الحريق ومنتجعاتهم للضواحي في "عولان والمجهولة والأخضر والأيسر" ورحلات قنص الوعول والأرانب والحباري، وأسفارهم البعيدة خارج نجد أو للحج. وكان الجد يتحين فرصة ملائمة ليحادث تركي بشأن وجود أبنائه وقرابته القائمين عنه بالجهاد ضد الغزاة، فقد كان الجد يتحسس بل ويبغض التطفل، حتى في بعض حالات الأمر بالمعروف، لذا فقد أعرض عن مشافهته بذلك. لكن أحد شيوخ الهزازنة الكرام خاطب "سعد" بحدة، وعتب عليه احضار أبيه للفلاة وهو لا يكاد يستوي على الراحلة، ونبه أنه قد يسقط فتدق عنقه قبل نشوب القتال، وأكد أن في ذريته من يكفونه المعاناة بلا طائل. لكن الأمير تركي رد عليه أن ما زال فيه "نخاع" وفتوة، ثم تحداه للمطارحة (مصارعة) وهو يتبسم، ثم رد سعد بالقول إن بعض الجماعة رفضوا الخروج إذا قعد في الحريق، وأنهم غير مشتهين الخوض في مقتلة بين ذرية ابن سعود. وقد كان الجميع يعرفون عن العلاقة الوطيدة المدعمة بين تركي وآل سعود، فقد كان يكثر المودة لهم ويهديهم الخيل والنياق الأصيلة، ويرسل لهم أطايب ما في الحريق، بخاصة من الضأن والحنطة والتمور، كما زوج بعض قريباته للأمراء. وعلاوة على ذلك كان كرمه سابغ يشمل البطانة والحشم والكتبة والخدم، ولما عاتبه أحد قرابته على الإسراف في ذلك، رد عليه بأن الله يحب من يحبه الناس، وهو يسعى لإدخال الحبور والرضا على الجميع. اكتفى الجد بما قيل في المجلس حول عدم ملائمة مشاركته في المخاصمة، فهو مريض ليس عليه حرج وما على المحسنين من سبيل، وجعل الأمر لله ثم لتركي وما يراه بنفسه وأولاده، وهم رجال راشدون ذوو سجايا حميدة.

كانت تلك الليالي حارة تهب عليها نسائم نجد الطرية بعد الانتصاف، وسمع الجد جلبة في العتمة قبل بزوغ قمر الربع الأخير، ولم يستطع تبين ما يحدث لكن أحد الصحب أفاده أن بعض الأعراب مع الأمير خالد يزودون أهل الحوطة بأنباءهم لغرض يقصدونه، وقد أخبروهم في اليوم السابق ان الدرويش يزمع استغلال الظلام، ليحرك مدافعه صوب حافة التل يباشر بعدها دك قرى الحوطة، قبل أن يباشر الهبوط نحو الباطن بعساكره وأعرابه، حتى يصلوا للبساتين بثمارها ومياهها ويسيطروا على الضفتين، ويقيم قاعدة لعمله ليفتش المكان بحثاً عن الإمام فيصل، ويتخلص من كل مقاومة لقواته. أعقب ذلك صوت جدال وفزع ثم أمسى صياح وصراخ، تلى ذلك صوت طلقات ضعيفة من فرود، ونصح الجد قرابته بعدم الخروج في الظلام، حيث لا يُعرف العدو من الصديق، ولا أحد يعلم المغزى من ذلك العمل، إلا أن البعض امتشقوا سلاحهم الخفيف وهرولوا في حذر نحو مصدر الضجيج. إلا انهم عادوا بعد هنيهة بدون علم عما جرى هناك، فحمدوا الله على سلامتهم، ثم تنبه أحد على صوت نهيق حمار عند حافة التل، بعدها تعالت أصوات "المصاروة" كأنهم يستحثون بعضهم البعض لبذل المزيد من الجهد، وبقي الجد في قلق حتى بعد صلاة الصبح. فلما بدأت خيوط ضوء

النهار شاهد بمنظاره العشرات من العسكر يعملون في أعلى المنحدر، ولاحظ أن المدافع الثلاثة لا يوجد منها سوى الكبير، أما الاثنان الصغيران فلا أثر لهما. كان معهم رجال من حوطة بني تميم، على اتصال مستمر مع من يتولى القيادة، وهم غير معروفين إلا أن الشائع أنهم من آل مرشد وآل حسين، وقد أشعروهم أن نحو ثلاثين رجل من أهل الحلوة، جلهم من "آل خُرَيِّف" علموا أن توجيه المدافع أعلى التل نحو الأعلى، سيؤدي لتساقط معظم المقذوفات على بلدتهم على الناحية الأخرى، أما البيوت أسفل المرتفع فقد لا يصيبها إلا النزر اليسير. لذا توجهت تلك الكتيبة في الظلام رجلية (مشاة) لسحب المدافع نحو الهاوية وجعلها تتدحرج بين الصخور وتتلف. إلا أنهم لما باشروا ذلك ارتفعت ضوضاء دحرجة أول مدفع، حتى وصل لبطن الشعيب وقد تلف، لكن العسكر انتبهوا لهم وجرى اشتباك في الظلام الدامس لم يتسنى معه اتلاف الثاني، بل تدحرج قليلا لكنه ما زال في أعلى الهاوية، واضطر المهاجمون للتقهقر للنجاة بحياتهم بعد أن هاجمهم عدد كبير من المعتدين وجرحوا بعضهم. قام المصريون بعد ذلك بالاستعانة بالدواب وحلفائهم من الأعراب، لجر المدفع الصغير واعادة تركيبه جوار الثالث، كما أرسلوا نجاب البريد مهرولاً لطلب العون من إسماعيل بيه، وكل ذلك والأمير خالد وقرابته ورفاقه كامنون، لا يُسمع لهم حس ولا تُرى منهم حركة.

عند الضحى تبين للجميع أن هناك تحركات كثيفة للعسكر، وأخذ الطُبجية (مشغلو المدافع) ينصبونها في وضع الرماية، وكان الضابط عبد الباقي يدور في المكان، كأنه يصدر أوامره لجنوده للتأهب لمعركة وشيكة، ثم خرج الأمير خالد على فرس نجيبة مزينة، واتجه نحوه تحيطه ثلة من البدو والمرافقين مع خمسة من الأحباش. على مبعدة منهم عدد من رجال كبار في السن، على نياق عتاق ومدججين بسلاح وذخيرة، وعرف الجد من لباسهم أنهم كانوا من مماليك الإمام سعود، الذين تدربوا على الدفاع الشخصي عن سيدهم قبل ربع قرن، ورغم تقدم العمر فقد بدت عليهم الهمة والنشاط للحرب. أخذ الأمير يتفرج بلا اكتراث على تهيئة المدفعين وتلقيمهما بالمقذوفات، عند ذاك أخبرهم الحوطي أن الخطة هي أن تباشر الحشود المتجمعة جنوباً قرب برك التوجه ناحية السلامية فور بدء الرماية، وعلينا أن نبدأ التقدم عند ذاك لمنع هدم المنازل على من تبقى فيها من النساء والأطفال. وان هي الا لحظات حتى سمعوا دوي الرماية المدفعية، وشاهدوا عسيب النخل في بطن الوادي يشتعل، حيث أن المدفع الأوسط أصابه تلف من الدحرجة، وتطيش بعض قذائفه يمنة ويسرة، أما الأكبر فقد توجهت رمايته بدقة نحو بلدة الحلوة أسفل الوادي، وأخذت تهدم ما تقع عليه من بنايات طينية. تأهب الجد وكافة الموجودين على التل الشمالي للنزول، لكن الحوطي أمرهم بالتريث حتى يسمعوا صوت رمايته على ميسرتهم، حيث أمروه بعدم الانقضاض على العدو حتى تصل نحوهم جموع برك. بعد لحظات شاهدوا غبار كثيف من جنوب، وحشد زاحف نحوهم على ركائب سريعة، فلما أطلق رفيقهم الحوطي النار من سلاحه، وهب مع زمرة معه للنزول مهرولين نحو خيمة الأمير، عندها اعتلى الجد صهوة جواده ولحق بهم، وهو

يهلل ويكبر ويسأل الله أن يثبت أقدامهم ويسدد رميهم، فوصلوا على عجل إلى مؤخرة العدو الباغي، الذي جاء ليدمر ديارهم ويقتل أهلهم وينشر الفساد والمنكرات. فجرى التحام شديد كاد المصريون أن يكسروهم، لكن الله سلم حينما وصلت الحشود الغفيرة من الجنوب، وتقاربت الفئتان ونزل الكثير ومنهم الجد عن الركائب، وجرى اشتباك عنيف بالأيدي والفرود والخناجر والسكاكين.

لاحظ الجميع صعود فرق من المجاهدين عبر درب السيل الشمالي، مهرولين لمعاونة رفاقهم أهل الأمر بالمعروف، وكان وصولهم عون من الله للمقاتلين قرب مقر قيادة العدو. رغم ارتفاع الغبار فقد لاحظ الجد صعوبة الوصول للمدفعين، لانتظام صف المقاتلين من البدو والمصريين، لذا نصح جماعته بعدم التوغل غرباً حتى يتبين الأمر. اشتد الحر والظماء والارهاق على أهل الديار، فقد "انتعل كل شيء ظله" لما اقترب الزوال، فقد كانت الشمس لم تنصرف إلا قليلاً جنوب المدار الشمالي الذي هم عليه! أصيب بعض العمال وهم يحاولون تزويد المجاهدين بالماء والذخيرة، ويخلون ساحة الوغى من الجرحى، وتكلم أحدهم بصوت عالي يحث على الثبات لساعة، واستشهد بقوله تعالى "ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون" فنزلت السكينة في قلوب المسلمين المخلصين. ولما وصلت الكتيبة الصاعدة من درب السيل كانت نعمة شدت من أزرهم، لكن الجد حسبها نقمة فقد ارشدت الضابط الدرويش إلى طريق لم يفطن له، حيث كان يخشى التوجه شمالاً حيث الفرقة المتحصنة أعلى التل، لكن الآن انكشف المكان ولم يعد عند التل أحد من المجاهدين، فقد هبطوا جميعا نحو ساحة الالتحام شرق مكمن المدافع. ظن البعض أن الضابط إبراهيم ومعاونه عبد الباقي فيه سذاجة الدراويش وبساطتهم، أما الجد فقد تحقق انه قوي الشكيمة صادق العزيمة وشجاع، ففي اثناء صولات الالتحام لاحظ أن الضابط قد فطن لمحاصرته من الجهات الثلاث، وهو على حافة الهاوية فلم يرى بد من فتح ثغرة في صفوف المدافعين، عند أقرب نقطة ضعف فيهم حيث الكتيبة الصاعدة. توجه مع معاونيه يقودون عساكر مصر ومرافقيه من الأعراب، نحو الجناح الشمالي وتمكنوا من شق صف أهل الحوطة المنهكين من الصعود مشاة، ففرقوهم وتوجهوا شمالا نحو أعلى درب السيل، وحينها ظهر الأمير خالد متوجها نحوهم تحيط به كوكبة من حرسه ومقاتليه، وهو يمتطي جواد عربي أصيل صغير خلاف أكثر جياد المصريين المغولية. شعر الجد بحدوث اضطراب في الساحة، حيث انقلب القادمون من الجنوب على اعقابهم، أما فرقتهم في الوسط فقد أخذت تتشتت، واندفع البعض لمطاردة الأمير الذي يلاحق الضابط ومساعديه، وفي نفس الحين لوحظ تجمع حشد من المصريين والبدو قرب خيمة الأمير، المجاورة لمخازن السلاح والطعام. أمر الجد اثنان من عماله لسرعة احضار دابته، ليشارك في مطاردة البغاة الذين انحدروا متجهين لبطن الوادي، لدفع أذاهم عن المنازل التي فيها العجزة والنسوة والصغار، لكنهم سمع صراخ مرافقهم الحوطي ينهاهم عن ذلك قائلا "خلوهم يحدرون" فتريث لبرهة ريثما يتبين له الأمر. شاهد تدافع وزحام

أعلى درب السيل ليس سببه كثرة العدد فقط، بل أن بعض الركائب تعثرت في الحجارة والحفر، حيث كان ذلك المسلك غير مطروق، وقد شقت فيه مياه المطر مجاري صغيرة وعرة، وكانت الخيل عاجزة عن المضي فيه قدماً، أما الحمير الجائعة فقد تمكنت من المضي فيه ببطء. هرول الجد نحو مكانه السابق على التل الشمالي، حيث يتمكن بناظوره كشف أرجاء المكان. بعد لحظات سمع رماية كثيفة من منتصف الدرب النازل، وتبين له أنه لم يفطن لوجود أربع غرف مبنية من نفس حجارة تل طويق ذاك، وكانت مرتفعة على هيئة مراقيب صغيرة، وفي أعلى كل منها مزاغيل (فتحات) صغيرة تخرج منها فوهات البنادق. أخذ الرجال المتحصنين بالداخل يمطرون الغزاة بوابل من بارودهم، لكن بعد قليل قل الرمي ربما لأن معظم بنادقهم "أم فتيل" وليست أم الزناد الذاتي، ومع هذا فقد أحدثوا ارتباك شديد في جنود العدو، حيث حاول البعض الاحتماء خلف الصخور، بينما تدافع آخرون للنكوص للخلف خشية وجود المزيد من الكمائن أسفل المنحدر. إلا ان عدد كبير تبعوا القادة في فرق صغيرة، متجهين للوادي حيث البساتين الخضراء، والمياه والطعام وكثير من الكلاء للبهائم.

أمضى الجد مع رفاقه وقت قصير لأداء الصلاة وتناول لقيمات تقيم أودهم، بينما يراقبون حشود كثيفة من العسكر، مستمرة في الهبوط نحو الوادي غير آبهين بالرماية الضعيفة من مزاغير المراقب الأربعة، التي كانت غير قادرة على إحداث إصابات جسيمة. شعروا بغصة ومرارة وهم يشاهدون البغاة يتجهون للتوغل في قرى الحوطة، المنتشرة على ضفتي الوادي المزدحمة بالمزارع والمنازل، تؤوي أعداد غفيرة من السكان، اكثرهم عجزة وأطفال ونسوة، بينما هم قابعون على التل المنزوي في انتظار التوجيه. كان معهم أربعة رجال من الحوطة، اثنان من آل مرشد ومثلهما من آل حسين، يغدون ويروحون ويعودون بالأنباء والأوامر، وبدا للجد أن الأمور مرتبة بشكل طيب، وتردهم كلفة المستلزمات من ماء وطعام وعلوفة، مع نقص في الذخيرة وبخاصة ملح البارود وقطع الرصاص، مع ما يرد للجد ورفاقه من الحريق يكتفون، إلا ان النقص في علف الدواب هو المعضلة، وتصعد لهم كميات غير كافية لكنها تسد الغرض من أسفل الوادي. تطايرت أنباء وارجاف في التل بما قاله البعض عن ارسال الأمير طلب لإسماعيل بيه للقدوم نحوهم بكافة من تبقى من العساكر والعتاد، وأنهم يتوقعون وصول المئات عصر ذلك اليوم. كما ادعى أحد القادمين ان البيه قد غزا بعض أطراف الدلم، واذعن له كثير من العرب وباعوه المؤونة والسلاح والركائب بثمن زهيد، خشية أن يبطش بهم ويصادر ما لديهم غصبا. أما أكثر ما كان يثير قلق الجد فهو أوضاع القتال في قرى الحوطة، بعد أن تمكن الدرويش ومساعدوه من النزول مع درب السيل، وهو الآن يسمع أصوات الرماية وصياح الرجال لبعضهم، لا يستطيع حيلة ولا صرفا بل يقبع في مكانه، طائعاً ربه وسامعاً لأمر من يدبرون القتال. وزاد الطين بلة لما ورده نباء كريه، عن انسحاب عدد من أهل بلدتهم من مكمنهم شمال غرب الحوطة، ومنهم بعض القرابة والجيران، لكن بدا أن أنباء تقدم إسماعيل نحو ساحة الالتحام، ومعه حشد

ضخم من المقاتلين والمدافع قد أدخل الهلع في بعض القلوب الضعيفة، أو ان الشيطان قد استزلهم ببعض ما كسبوا! وبينما هم على تلك الحال اقترب أحد الخدم من الجد، وسأله أن يعيره الناظور فتوجه معه نحو صخرة علوية، وتطلع الرجل صوب الشرق بميل نحو الشمال، وصاح قائلا هذا {عمي الأمير خالد هناك} فلما أخذ منه الدربيل شاهد كوكبة من خيالة العرب معهم نحو عشرة مصريين، مستقرين عند ربوة صغيرة يتطلعون في قلق جهة الغرب ساعة وللشمال أخرى. أصر الخادم أن يذهب عندهم مشيراً أنه كان مع الأمير لما غادروا الدرعية للقاهرة أسرى، ثم أقام مع والدته هناك يعملون في مساكن قرابة الإمام عبدالله، ولم يره منذ خمس سنوات لما رجع لنجد بعد وفاة أمه، ولم يتسن له رؤية عمه خالد الذي عاد قبل شهور طامعاً في استعادة الحكم. قال أحد الحضور ليس من اللائق تركه يذهب وحيدا، لكن الجد نهاه فأولئك القوم من محاربيهم وقد يفتكون بهم، تطوع للذهاب عدة رجال وبعضهم رأى من العار ترك الأمير في العراء، وبدا من حركة دوابه أنها جائعة لا تقوى على المسير. لم يجد على بن حمد بد من مرافقة جماعته، في ممشى نحو العدو قد يؤوله البعض أنه ضرب من الخيانة، هذا إذا لم يسارع رفاق الأمير بإطلاق النار عليهم. نزع الجد للسير متأخراً عنهم، يتوجس الريب من حركة الغرباء، ولما لاحظ أن بعضهم يجهز سلاحه للرماية ترجل من على دابته واستقر في مكانه، ثم مشى نحو القوم بعض العمال والخدم، غير مسلحين وليس عليهم سوى سرابيلهم مكشوفين للشمس الحامية. عاد منهم اثنان يقولون ان الربع يريدون قهوة وعلف للدواب، وساتر يستظلون تحته من شمس عصر ذلك اليوم الحار، فأمر الجد أحد عماله بالعودة واحضار ما يلزم. ثم توجه مع بعض الرفاق نحو مكان الأمير الذي لم يكن قد رآه من قبل، لم يبادلهم الرجل التحية بحرارة أو حفاوة، بينما كان الرهط من حوله ينظرون إليهم بشزر وريبة، وأيديهم قريبة من مقابض سلاحهم متوجسين الغدر. رغم ان الجد وصحبه تركوا سلاحهم عند الركائب بعيداً، لكن وقفتهم تلك في اثناء معمعة المعركة كانت أمر نشاز، وهذا ما توقعه الجد وسأل الله السلامة. تحدث أحدهم للأمير الصامت في وجوم بأنهم يرحبون به، لأنه سليل الأسرة السعودية وكانوا يتمنون لقائه في حال أفضل، فتناقص الوجوم على محياه الأسمر ودعاهم للجلوس في الظل الذي أعده العمال من أعواد غير منتظمة، يعلوها لفافة من قماش بسيط، وعلى الأرض مطرحة غير سميكة. ثم حادثهم حول قدومه لترتيب أحوال البلاد، بعد أن عجز فيصل عن القيام بما يجب عليه، وكانت الكلمات مرتجة على لسانه وهو يكثر الالتفات حوله، بينما أحد حرسه الضخم الجثة ذو النظرات الشريرة، يحدق في وجوه الجالسين باشمئزاز. لذا تحين الجد فرصة لما سمع العمال يدقون نجر القهوة، فحادث أحدهم على بعد ثم قام نحوه كأنه يبين له الطريقة المثلى للجرش. هناك سألهم عن ذلك الحارس المتوحش، ذو اللكنة المختلفة عن لهجة مصر اللطيفة الناعمة، التي اعتاد عليها من العمال العائدون من مصر، بعد أن قررت أمهاتهم الرجوع للديار، وكانت الكلمات الدارجة بينهم هي {عاوز وماأعرفش وكويسة ومتشكرين} وقد فهم منهم أن ذلك الرجل من عساكر الباشا محمد علي المغاربة، وهو

مراكشي من قبائل المور ذات اللكنة الأمازيجية. وصح ظنه أن أولئك العسكر ليسوا لحماية الأمير، بل هم حراس لضمان عدم هروبه منهم، كما استاء لسماعهم ينادونه بلقب "أفندي" وهي من رتب مصر التي تقل كثيراً عن الباشوات والبكوات، تعادل أو تزيد قليلا عن رتب الأغوات والعمال. وأثناء احتساء القهوة لاحظ أن الأمير خالد في نكد ورهق، ويرفع لسانه ليرطب شفته العليا أسفل شواربه الطويلة، التي ربما أنه يقلد بها أبوه الذي توفي وهو مازال دون سن الادراك. اقترح الجد أن يغادر الى مكانه أعلى التل واستأذن قائما، لكن أحد الرفاق تطفل بكلمة لا داع لها البتة، داعياً الأمير أن يتخلى عن الغرباء ويستعين بأهل بلاده، لكن المراكشي استل سيفه مزمجراً في غضب لتلك المقولة، وخشي الجميع حدوث ما لا تحمد عقباه. وفجاءة صاح أحد الخدم قائلا {بصوا بصوا الحرامية هجموا على خيامنا} عندها قرر المراكشي ان يتوجهوا لحمايتها، فتساءل أحد الضباط عن كيفية ذلك وعددهم غفير، عندها هز سيفه واقترح أخذ الوهابية رهائن، لكن الأمير رفض لأنهم أعوانه، ورد باقي المصاروة ان افندينا على حق. لذا توجه الجد نحو الركائب والسلاح يمشي الهوينا بثقة، رغم الوجل الشديد في قلبه للوقوع في تلك الورطة المهلكة، ولم يكد يصلها إلا وقد اضطربت جوارحه لا يدري ما يقوم به القوم من ورائه، ثم حمد الله على السلامة لما استدارت ركوبته وشاهدهم يغادرون شمالا.

لما جلس الجد في مكمنه خلف الساتر أعلى التل، أخذ فكره يرتج من بعض ما سمعه من الأمير خالد (الأفندي) حول تحرك إسماعيل بيه نحوهم بقوات لا قبل لهم بها، تحوي المدافع الضخمة لدك البيوت والحوائط كما جرى للدرعية، وآلاف من الخيالة والهجانة والأعراب الموالين له. واهتزت مشاعره قليلا لكنه لما ذكر الله ووحده اطمأن قلبه، وسأله سبحانه أن يجعله ورفاقه ممن إذا حشد لهم الناس القوات زادهم الله ايماناً وثقة فيه. تكدر خاطره لما أخبره أحدهم أن بعض أهل الحريق ومنهم قرابة، قد فروا من مواقعهم في باطن الوادي لما اشتدت الرماية، وقال آخر تلك شنشنة نعرفها في أراذلنا منذ القدم، أشدة على الأحبة أذلة على العدو. عمد للتطلع نحو مخيم القيادة فلاحظ تزايد عدد من ينهبونه، وصار الكثير يصعدون من الباطن بغرض الحصول على حصة من الأسلاب، ومتروكات المصريين من طعام وعتاد ولباس. قبل الغسق جاء رجل من الحلوة يوجه من يرغب لمطاردة فلول المنهزمين، وقد بين أنهم هاربين نحو الشمال الشرقي، في مجموعات صغيرة غير منظمة، بعضهم على ركائب ضعيفة من حركة المعركة، وأكثرهم مشاة ليس معهم طعام ولا شراب، وقد تخلوا عن جرحاهم والمصابين، بعد أن شاهدوا الذبح في سكك البلدة ومزارعها. لكن الجد آثر عدم المشاركة في الملاحقة، بخاصة وهو يسمع أصوات البنادق في القويع، ويخشى أن تنقلب الحال لو وصلت الامدادات التي تحدث عنها الأمير خالد. قال له أحد الرفاق إن الدرويش شوهد وهو يصاب ويسقط من على جواده، قرب الحلوة وتجمع حوله رجاله واتجهوا به شمال الوادي. بعد ان حل الظلام توقفت لعلعة البارود وقرقعة الحديد، وبدا

أن الالتحام قد سكن لما قرر الجميع الخلود للراحة، بعد يوم مرهق أطالته احداث المنازلة، وقد شاهد الجد ورفاقه في التل جموع من عساكر مصر، يغادرون الحوطة وقراها في زرافات صغيرة يتسترون بالظلام، متجهين على غير هدى نحو الشمال الشرقي، معهم بعض الأعراب ممن لا يعرفون السبل في تلك المنطقة جيداً. اقترح البعض ان يفتكوا بهم ويسلبوا ما معهم، حيث أنهم بغاة جاءوا لهدم ديار أهل التوحيد والنهي عن المنكر، لذا فدمائهم واموالهم حلال لأهل الديرة، لكن أحد كبار آل خثلان نهرهم ومنعهم عن ذلك. عند الصباح تبينت المأساة في السلامية، ثم اتضحت أكثر لما نزلوا نحو الحوطة، فقد كانت جثث القتلى من الجانبين، وأشلاء المصابين تملأ المكان، وبادر الجميع لربط الأسرى وعلاج الجرحى ودفن الموتى، وإزالة الركام من الطرق وتفقد أحوال الضعفاء وتدبير حاجياتهم. في نهاية اليوم جاءت أنباء ان إسماعيل بيه والأمير خالد وصلوا الدلم، في حالة مزرية فارين من واديي الفرع وبرك، حيث وجدوا العداوة من أهل البلدة الذين لم يرحبوا بهم. أما ما تبقى من فلول جنودهم فقد وصل قليل منهم للدلم والغالبية ضاعت في الطريق، فانحرف بعضهم يميناً فوصلوا "دغرة" جنوب شرق الدلم، وآخرون انحرفوا يساراً تائهين في فيافي "ماوان" غرب الدلم، حيث تعرضوا لهجمات من البدو والرعاة الذين قتلوا بعضهم، وسلب الكثير منهم السلاح والثياب، وترك البقية يهيمون على وجوههم في الصحراء للموت جوعاً وظماء. جاء للجد اثنان من عماله يحملون بعض ما أخذوه من معسكر الأمير خالد، لكنه أبى ان يتسلمها لأنها غلول ولابد أن تضاف مع الأنفال (غنائم) لكن أهل الحوطة ردوهم، قائلين إنها أسلاب ومتروكات ومن أخذها مستحل لها فهي له، ولما عادوا اليه بذلك النبآء رد عليهم بغضب انه لا يريدها، وأمرهم بسرعة التجهيز للعودة لبلدتهم لذا توجسوا خيفة، وقرروا عدم التصرف فيها وتسليمها للجماعة في الحريق. هناك صدمته ملاحظة أهل بيته وقرابته، لما رأوا طريقة مشيته وحركاته وتساءل الكثير عما يؤلمه، وقال إنه والحمد لله لم يصب بأي جراح عدا خدش يسير في يسراه، لم يؤثر على قدراته أما أحد اخوته فقد نوه له أنه شارف على السبعين، وعليه أن يخلد للراحة ويقلل من بذل الجهد المضنى، ويترك الاعمال الشاقة لأولاده وحفدته وقرابته ومعاونيه. لكنه لم يأبه بهم كثيرا واكتفى بقول ان شمس برج الأسد قد لوحت بشرته، وأنهكه المسير وليس فيه إلا العافية من خالقه وسيعود لما كان عليه بحوله تعالى.

نختم هذا الفصل بسرد بعض تنويهات لأمور ذكرها بعضكم أيها الأحبة، أولها ان الجد علي بن حمد بن خثلان سرد لمجالسيه ما "رأى وما سمع" وما قام به أثناء تواجده في ساتر السلامية وفي الحوطة. أما ما تناقلته الألسن حول حضور إسماعيل بيه، ومعه تعزيزات من آلاف الجنود المصريين والعربان، مع عدد كبير من المدافع والعتاد الثقيل والخيل، فلم يشاهد منه شيء والعهدة على من روى ذلك إذا كان ثقة! كما ان ما جرى في منازل ومزارع وسكك قرى الحوطة وعلى الضفة الغربية للوادي، سمع عنها مثل غيره ومن مصادر بعضها صادق وأكثرها خلاف ذلك. كما أن قصة تحصن الدرويش

في حائط زراعة، ومعه ثمانون من عساكر مصر ومائة وخمسون من مرافقيه العرب، سمع عنها ولم يشاهد ما قيل عن هروب أكثرهم ثم مصرعه، لهذا فلم يلوث لسانه بذكر ما لم يتحقق منه. ونكرر هنا ان هذه السيرة ليست مرجع تاريخي، بل يلزم للباحث عن "الحقيقة الشاملة الكاملة" أن ينقب في المصادر التاريخية الموثوقة، التي وإن كانت شحيحة إلا أنها ليست معدومة، وقد كان والدي رحمه الله على ثقة ان في الحوطة، رجال ثقات ربما أن بعضهم سرد أو دون لمحات من تلك المنازلة الفاصلة في تاريخ نجد، أثناء منتصف القرن الثالث عشر الهجري. وثاني تلك الأمور ما ذكره الجد علي عن انتعال كل شيء ظله في السلامية، وذلك لقربها من الحد الشمالي للشمس في الصيف أي في شدة القيظ، وقد كنت شخصياً من المشككين أن يتمكن الجد من معرفة المدار الشمالي، في زمن لم تكن فيه أي أجهزة لتحديد المواقع. أما "الاسطرلاب" الذي عرفه العرب في القرون الوسطى، وشاع استخدامه عند الأوروبيين آنذاك لتحديد مواقع السفن في البحار المحيطة، فهو يستخدم مواضع النجوم ليلا لتحديد تقريبي لمكان السفينة. أما أثناء النهار فيستخدمون عمود طويل (أو مسلة) وقياس الظل واتجاهه، لمعرفة فصول السنة أو ساعات النهار بملاحظة طول واتجاه الظل، مما يعاونهم في معرفة أوقات الزراعة ومواسم الحصاد، وكنت أتساءل هل يستطيع الجد تحديد موقع المدار بمجرد تتبع حركة الظل؟ وليس لديه بوصلة ترشده لاتجاه الشمال الجغرافي، بخاصة أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن في مرصد جرينتش (شرق لندن) سوى معدات بسيطة وخرائط غير دقيقة. كان منبع تساؤلي هو نفس شكوككم أيها الأحبة في دقة معلومات أسلافنا، وهل كانت معارفهم عشوائية أو رزينة، حيث الجميع يشاهدون الشمس تتجه نحو الجنوب في الشتاء، ثم تنصرف عائدة للشمال حتى تصل في آخر أيام برج الجوزاء إلى أقصى مدى، أي ما يقال له المدار الشمالي حيث ينعدم الظل ظهراً. لكن كيف يحدده الجد قرب السلامية بمجرد المعاينة البصرية لظل عصاه في العراء، وهو لم يكن في نهاية الجوزاء وظل الزوال عند دلوك الشمس ما يزال قصير، كما لا يعلم آنذاك ان الأرض تدور حول الشمس مرة في السنة وحول محورها مرة كل يوم، بزاوية ميلان نحو ثلاث وعشرين درجة. في الربع الأخير من القرن العشرين بدأت ابحث عن موقع المدار الشمالي، ومعي بوصلات مغناطيسية حديثة لكنها لا تقارن مع أجهزة تحديد المواقع بالأقمار الصناعية، والخرائط آنذاك تحدد المدار أنه على مسافة تزيد كثيرا عن مائة كيلو جنوب الرياض، لكنها تقل قليلا عن المائتين فهل هي حقاً قرب السلامية؟ اندهش بعض الأقارب من محاولات الرصد التي أقوم بها، ورغم أن بعضهم تجاوز الدراسة الثانوية، إلا أنهم لم يخفوا رأيهم ان عبد العزيز بن عبد الله يتابع مدار مجهول في القفار! ثم أخبرني أحدهم ذات مرة أنهم شاهدوا في محطة وقود السيارات في الدلم، مجموعة خواجات معهم فلسطيني، قالوا انهم يريدون تحديد دقيق (خط إبرة) لمكان المدار وشكوا أنهم أيضاً معتوهين. وفي أثناء حرب العراق وإيران (صدام والخميني) تمكنت من الحصول على جهاز (جي بي اس) حربي دقيق، وكانت فرحتي غامرة عندما استطعت بالفعل أن أقف على خط

المدار (الوهمي شتاء) والذي يقع فعلا شمال السلامية ببضع مئات من الخطوات، فرحم الله أسلافنا الصالحين لما كانوا يبذلونه من فكر وجهد لتدبير شئون حياتهم وزراعتهم وبهائمهم، بدون أن تتوفر لهم الأجهزة العلمية الحديثة، ونحمد الله أن زودنا بعلوم نافعة، عسى أن يرزقكم يا أحبتي المهارة لتطويرها وتحسين تطبيقاتها، وبما يغنينا عن الغرباء المبغضين لديننا وأخلاقنا. وفي هذه السطور اعبر عن أملي أن يوفق الله بلدية الحوطة لإقامة منتزه شمال السلامية، يشمل عمود مرتفع لأكثر من 25 متر أسفله قاعدة ملساء عريضة تحدد نقطة المدار، واتجاهه شرقا وغربا حتى نهاية الفناء، على ان يشمل ايضاً مجسم يوضح أماكن معركة السلامية كما حدثت نحو مائتي سنة، ومجسم آخر يبين الوضع الحالي للمنطقة، بما فيها الحلوة والقويع والعطيان والشعبة والسد ووادييي الفُرع وبرك والمجازة القديمة، علماً أنه لا يوجد فعليا ما يسميه العامة وادي الحريق أو وادي الحوطة. ويمكن لهذا المنتزه أن يجلب الزوار لعرفة تاريخ وجغرافيا وطنهم وديارهم، ولا يتعارض مع وجود الحديقة التي على يمين الخط، حيث أنها تبعد عن خط المدار. لقد كانت تلك المعركة ذات أثر عميق في نفس جدكم، فرغم أنه شارك في محاربة إبراهيم باشا سنة كاملة، من ضرما إلى الحيسية ثم الجبيلة والوصيل والملقا حتى العلب ثم بطن الدرعية، وتعرض لإصابات وكسور وجروح عديدة، إلا ان كل ذلك لا يعده شيء مقارنة مع سحابة نهار حار في السلامية، حارب فيها عساكر مصر مع خبراء فرنسا، وكانت النتيجة تشرح صدور المؤمنين بنصر حاسم ضد عدوهم، وليس باستسلام يعقبه رحيل للمشنقة. لذا فقد كان العم زيد يشرح لأبي ما قام به جده، وكافة الرفاق من نضال حازم ضد الغزاة، وكان مما يثلج الصدر إعادة سرد احداث ذلك اليوم المبارك، الذي أنزل الله فيه سكينته على عباده وثبت أقدامهم وأيدهم بنصره، وإقامة ذلك المنتزه سيُبقي في ذاكرة كل الأجيال ملامح العزة والظفر بعونه. وحرصاً مني على رؤية ذلك التذكار، ورغم ثقتي في قدرة بلدية المحافظة، وفي كرم وثراء تجار الحوطة المخلصين، اتعهد هنا بالمساهمة جدياً في ذلك سواء بالفكر والخبرة والمال، راجياً الله أن يرى الحفدة رمزاً لنضال أسلافهم، المجاهدين لإبقاء الديار خالية من مظاهر البدع والمنكرات، التي حاول الغرباء بثها في أرضنا، التي كان والدي وأسلافه يرونها لا تقتصر على "البديعة وحليلة والمريح" بل تمتد لتشمل كافة الديار السعودية من الزبير إلى نجران.

ونعود الآن إلى ثالث الأمور التي استفسرتم عنها، المتعلق بما ورد عن توجه الفارين نحو "دغرة وماوان" وهما منطقتين قرب الدلم لكنهما ليستا على الخط الدولي المسفلت، بين الرياض واليمن الشمالي والجنوبي وعُمان والذي يستخدم فرعه للوصول للحريق، لذا فإن بعض الأحبة الذين حررت لهم هذه السيرة والعبرة لم يعرفوها. وأنوه أني قد التقيت قبل سنوات بأحد الباحثين من الأكاديميين الأفاضل، الذين يقدمون الكثير من الفكر والجهد في استكشاف حقائق جديدة عن تراث قديم، والتنقيب في البلدان عن آثار الحضارات السابقة، خلافاً لأكاديمي "الخرطي" الذين يحبرون دراسات تافهة تقوم

على النقل من مصادر رديئة، حتى رأيت في رسالة أحدهم أكثر من عشرة هوامش في صفحة واحدة، للمصادر التي نقل منها لكي يخلي مسئوليته عن ما تحويه رسالته من خلل واضطراب، ويبرر الخطاء في المعلومات والأحداث والزمن والمكان والناس بانها منقولة من غيره، وكأن أحد لم يخبره أن نقل التفاهات عمل تافه بغض النظر عن المصدر. أما ذلك الأكاديمي الفاضل فقد أنفق وقته وجهده للتنقيب في العراء عن آثار وجدت في دغرة، التي تقع جنوب شرق الصحنة وهي حاليا جزء من الدلم، وأخرى مثلها في ماوان التي تقع على نحو ثلاثين كيلو غرب الدلم، وقد أكد لي الباحث أنهم قد عثروا على دلائل و "ألُقى" تشير إلى وجود حضارة ترجع لنحو مائة قرن، أي قبل بناء أهرام الجيزة وحدائق بابل المعلقة ومعابد الصين الأثرية. وقد نوهت له عما هو موجود في الفاو (وادي الدواسر) جنوب الدلم من آثار، فقال ان حقبها المتقاربة شجعت النابغين في الجامعة للمزيد من البحث هناك. ويمكن للأحبة أثناء سفرهم للحريق التوقف في تلك المنازل المقفرة، واستخلاص العبرة ممن تاهوا في الفيافي القاحلة تحت شمس القيظ الحارقة، وفقدوا كل شيء وهم يلعنون من أرسلهم هناك بدعوى كاذبة، انهم يحاربون "عصاة الخوارج الوهيبية" لكنهم لم يعودوا بشيء، فعليه من الله ما يستحق من اثم جناه عليه الطمع الأخرق. فقد كان ذلك الألباني اللئيم يظن أن أهل جزيرة العرب مثل أهل الاناضول يستكينون للغزاة، الذين حشدهم الباشا من أصقاع الشام ومصر والمغرب. الأمر الرابع يتعلق بحالة الأمير خالد بن سعود في تلك الفترة، فقد تأسف الجد لاستهتار الكثير به رغم ما لاحظه من دماثة خلقه، فقد كان المراكشي اللئيم لا يناديه إلا "الأفندي" ومنصبه مجهول فساعة هو "متصرف" وأخرى "قائمقام" وكأن نجد العظيمة لا تستحق أن تكون بمنزلة البصرة أو حلب، حيث في كل منها والي برتبة باشا لكنهم استكثروا ذلك عليه رحمه الله، وقد قبله لأمر ما فمن يهن يسهل الهوان عليه.

أما الأمر الخامس فذكره بعضكم في معرض ما ورد في كتابة ابن بشر عن تاريخ نجد، وأكرر هنا ما سبق قوله بأن هذا المكتوب هو عن سيرة سلفكم، واستخلاص العبرة منها ولا علاقة له بالتاريخ، وقد سمعت في مجلس والدي كثير من المداولة حول "عنوان المجد"، وخلاصتها أنه أوسع ما كتب عن تلك الحقبة، ورغم ما يشوبه من نقل عن مصادر مجهولة، أو الخلط في بعض الأحداث والأشخاص والزمن، واللبس مثل ما ذكره عن المعمر ثم عن الأمير مشاري، إلا ان ذلك يمكن تجاوزه في المخطوطات العتيقة. أما ما لا يستساغ فهو التحيز الشخصي الفج، بتعمد اسباغ هالة من العظمة على البعض ممن لا يُعلم الكثير عن احوالهم، وفي نفس الوقت يفرط في توزيع الانتقاص والإساءة لآخرين لا يجهل منصف دورهم، وبلغ ذلك التفاتات منبوذة تغمز من طرف معاصريه لم يسلم منها حتى السديري والعفيصان، اللذان لا ينكر اخلاصهم منصف. أما ما يمسنا فهو العداوة الواضحة لقبيلة سبيع التي لا تحتاج من يطري مواقفها المخلصة لله أولا ثم للديار السعودية، ومن غير المفهوم ذلك التجني القبيح ضدهم في

كل المواقف، ودسه أنباء غير صحيحة عنهم لا تخفى على القارئ الفطن المحايد. ومن غير المفهوم ما إذا كان البشر أثناء معركة السلامية، موجود في الوشم أو جلاجل أو حرمة أو الزبير، لكنه بالتأكيد لم يكن في جنوب اليمامة، فمن أين استقى تلك التحبيرات المسيئة، وهل أملاها عليه أحد المحبوبين أو أنها مجرد أفكار شاردة؟ لكنها تبين بجلاء أن ما يقال عن قدسية ذلك المخطوط هي مجرد وهم، والصحيح أن هناك الكثير من الضغائن أو المصالح تؤثر على الصياغة، لذا فعليكم أيها الأحبة الحذر عند قراءة ما كتب لغرض شخصي، أو دست فيه "بين السطور بعض الأمور" لحاجة ما في النفس. وحتى يتضح الأمر أسرد للأحبة بعض نص ابن بشر عن معركة السلامية، حيث قال {فحصل بينهم قتال شديد يشيب من هوله الوليد ---- ثم وقعت الهزيمة العظيمة التي ما وقع لها نظير في القرون السالفة ولا في الخلوف الخالفة على عساكر الترك وأعوانهم} ان هذا السرد على ما فيه من ارتجاج، يبين بجلاء وجود مشكلة "غيبة الادراك" لدى الكاتب، فهل يقبل ان يكون أي باحث في التاريخ لا يدرك انه في تلك الحقبة، كان إبراهيم باشا (مدمر الدرعية) قد استولى على الشام، وقبع في جنوب غرب الأناضول يحاصر السلطان العثماني بعساكر مصر، بعد أن كاد يدخل عاصمته القديمة (بورصة) أو يتوسع شرقا حتى يسيطر على كردستان، ويقطع اتصال إسطنبول مع والي بغداد. من المفهوم أن الجد علي لم يكن يعلم عما يجري في الطرف الآخر من وادي برك (أو الفُرع) لأنه ليس مؤرخ، لكنه علم من الحجاج عن ورطة السلطان محمود، وعجزه عن الوصول لنجد بعد أن هزمه أحد أعوانه، محمد علي باشا مصر الكبير. يستشف من كتابة ابن بشر أنه آنذاك كان في الزبير، وربما حضر النزاع الدموي بين "الزُهير" وأهل حرمة هناك، كما أقر أنه قد حج مع الإمام واستحصل على كتب وأنباء في الطائف ومكة نقل منها مالم يفصح عنه، فهل يقبل ألا يدرك ان معركة السلامية (أو حلوة الحوطة) لم يكن للعثمانيين (الروم) دور فيها، وأن أكبر أعوانهم للسيطرة على قلب جزيرة العرب وشنق حاكمها، قد انقلب وغدا محاصراً لسلطان آل عثمان. ان تسطير صفحات التاريخ ليس سيرة ذاتية، بل هو إدراك لكافة العوامل التي تؤثر على الأحداث الرئيسة، بدلا من استقاء الأخبار من ذوي الحاجات والأغراض، وينتهي به الأمر أن يدرج أنباء عن بطولات زائفة لأشخاص غير معروفين لدى غالبية الناس، ثم الانتقاص من دور من يعرف الكثير مساهمتهم الفعالة في مجريات الأمور. لذا فإن المصادر التاريخية الموثوقة لابد ان يتوفر فيها "النزاهة والإدراك" وأنصح الأحبة بالإعراض عن أي مصدر لا يتوفر فيه ذلك، وعلى كل حال نسأل الله أن يجزي المحسن احسانا والمسيء غفرانا، مادام خطأه نابع من قلة الفطنة أو التعجل والارتباك بحسن نية، أما المسيء بقصد التعالي والوجاهة الزائفة أو وليمة دسمة أو كيس دراهم، فلا نقول سوى إنه سبحانه "كان بعباده خبيراً بصيرا" وهو الهادي إلى سواء السبيل. ولما كان الأمر يتعلق بترهات مغرضة، فليسمح لي الأحبة أن اذكر لهم طرفة سمعتها أكثر من مرة، من بسطاء في مجلس والدي تتعلق بذلك الحدث ولم يعلق عليها قط، لكن فيها عبرة وهي القصد من هذه السيرة، التي يجوز ان تذكر فيها الطرائف مما لا يقبل

ذكره حتى في كتب التاريخ المشوشة. فقد قال أكثر من واحد أثناء الحديث عن معركة السلامية، ان حوطي (!) قد قبض على مصري وضربه حتى غشي عليه، وأخبره رفاقه ان بامكانه الحصول على فدية عشرين فرانسة، لكنه قال لهم أنه سيحمله لمنزله ليشاهد أطفاله ونسائه كيف تذبح الرجال مثل الشياه، وقام بذلك فعلاً ووصل بيته مرهقاً، فنادى عليهم ليحضروا له سكين المطبخ، وكان المصري قد بداء يستعيد وعيه، فلما سمع ذلك استل خنجر الحوطي من خاصرته وذبحه به أمام عياله، وأسرع بالهروب وسط صراخهم بعد ان شاهدوا حقاً كيف يذبح الرجال!

يلزمني هنا ذكر ما سمعته في المجلس من أحد المكاوية، يخاطب سبيعي من القصيم وربما يغمز من قناة أبي رحمه الله مازحاً، بأن ادعائه عن ضغينة ابن بشر ضدهم هو أنهم يحبون التعالي والسمعة. فرد عليه الرجل برفض ذلك ودعا الله أن يُسمع بمن يولع بالسمعة الزائفة. ورد عليه آخر ان البلهاء فقط هم من يحاولون التجمل عند الحكام، سواء بادعاء الفضل عليهم ومعاونتهم أو بالقرب منهم، لأن أهل السلطة لا يتعاملون مع الغير إلا بشكل "لحظي" فقط، ويبدلون حالهم مع الناس بالنظر نحو موقعهم الآني وليس قبل أو بعد دقائق. ويحسبون قدر كل شخص ما إذا كان "عون أو عوق" في تلك اللحظة، وليس قبلها حتى لو بدقائق. أيد ذلك أحد الفقهاء بأن فرعون قال للسحرة ان لهم الأجر ومن المقربين، لكنه بعد هنيهة لما لقفت العصا ما يأفكون بدل حاله، وتوعدهم بالصلب على جذوع النخل ولم يكترث بموقفه السابق (الأعراف) وهكذا كل صاحب سلطة لا يكترث بما كنت بل ويخشى منك "النكرة" يرصد كلماتك وحركاتك بسوء ظن عميق، لذا فالمساكين من يطمعون في نيل العطايا والمناصب بذكر فضلهم السابق على الحكام، الذين لا يقبل أحد منهم منة أو إشارة بذلك، فهم قد أوتوه على علم وقدرة منهم! كان أبي حينها صامتاً يستمع للمناظرة، لكنه تململ لما قال أحدهم هذا أبو خالد، كان الملك عبد العزيز يسميه بطل فتح "زبيد" ويثني على ما قام به في أثناء الدفاع عن حدود البلاد من أطماع إمام اليمن، إلا أنه بعد شهور لما بلغته وشاية "السيارة والجريدة" من المبغضين أمر بسجنه وكاد يقطع رقبته لكن الله سلم. فرد عليه بضيق ان ذلك كلام في غير لزوم، ثم أوضح أن كل الناس ينسون سريعاً الحسنات الكثيرة، ولا ينسون قط إساءة واحدة وان كانت تافهة. وأشار آخر أن رصاصة واحدة خدشت طرف إصبع (سنة الصريف) بقيت تتردد في المجالس خمسين سنة رغم أنها طائشة، لذا فعلى كل عاقل تفادي أي تلميح لذوي السلطة بأن له فضل عليهم.

بهذا نختم الفصل الذي سميناه "إحن ومحن" لما جرى في تلك السنوات القليلة من سفك لدماء زكية، ليست في نضال ضد عدو أجنبي، بل في نزاعات أهلية نتيجة بغضاء وخلاف شخصي، أو نزاع على مصالح دنيوية رخيصة. حيث في تلك الفترة ظهر ابن معمر وولده في ترتيب غامض، يحاولون ضبط الأمور في الديار بعد شنق الإمام، ثم مجيء الأمير مشاري في حال أكثر غموضاً، مما تسبب في موته أثناء سجنه وبالتالي قتل المعمر وولده وظهور الأمير تركي بن عبدالله. وتلى ذلك هزيمته في الدرعية

والرياض، وجلائه نحو مغارات "عليه" في جبال الحريق، وقيام فتن في المحمل ومقتلة بين بطاح ومعارضيه في حريملاء واستيلائه على السلطة، وما جرى في قاعدة سدير (جلاجل) من سفك دماء بين "سويد" ومن نازعوه الإمارة، ومثل ذلك في مناطق أخرى من القصيم للأحساء. وسيرد في السيرة خلال الفصل القادم المسمى "نهاية وبداية" ملامح للأحداث الشخصية لأسلاف صاحب السيرة، حيث سننتقل لما جرى زمن جد أبي (عبدالله بن علي) الذي لم يكن حريصا على تتبع "حوادث الزمان والمكان والرجال) فلم يكن مدونا ولا حافظا مثل أبيه، إلا أن ولده البكر زيد عاصر جده علي، وقد كان زيد (عم والدي) لبيباً أريباً حافظاً كاتباً، وقد ربطته بوالدي علاقة وثيقة وروابط متينة، تتجاوز القرابة نظرا لما يجمعهما من حب للعلوم وشغف بادراك الأحوال. وفي ذلك الفصل التالي سنرى نهاية زمن الفتن، التي لم تقتصر على نزاعات بين افراد عائلات أو عشائر مختلفة، بل بلغت حد كريه حينما تقاتل أبناء الإمام فيصل مع بعضهم، في أحداث دموية مؤسفة عانت منها البلاد، وتفاقمت المساوئ لما انبرى بعض حفدة الإمام فيصل لمقاتلة بعضهم ثم قاتلوا أعمامهم، وانتهى الأمر بحضور مسلحين من حائل للقضاء على إمارة آل سعود، وآل بهم الأمر بين قتيل وسجين وهارب للكويت. ثم في نهاية الفصل سنرى "بداية" حقبة جديدة حينما عاد للرياض الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن (حفيد الإمام فيصل) وناضل لثلاثين سنة لإعادة تأسيس الإمارة السعودية، رغم عداوة الكثير له ومحاربة كل جهوده.